وميض
الزنابق

وميض الزنابق

الكاتبة: أماني إبراهيم

رقم الإيداع: 23373 / 2018

ISBN : 978 - 977 - 798 - 016 - 6

الطبعة الأولى يناير 2019

دار الحلم للنشر والتوزيع والترجمة ©

عضو اتحاد الناشرين المصريين

القاهرة - جمهورية مصر العربية

*E-mail: dar_el7elm@hotmail.com*

*info.darel7elm@Gmail.com*

*Tel: 00242216335 - Mob: 00201141824562*

*Sales Manager Mob :00201146644959*

## جميع الحقوق محفوظة للناشر©

إن دار الحلم للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الوارده في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضروره عن آراء الدار، كما أن جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار ولا يجوز طبع أو إعادة استخدام أي جزء من العمل في أي صوره كانت إلا بموجب موافقه خطية من الناشر..

# وميض الزنابق

الكاتبة

أماني إبراهيم

الحلم
للنشر و التوزيع

في لحظة تراها بلا حياة، ذابلة، مجعدة، بهت نورها الأبيض القديم، انطفأت كأي كائن حي يحتضر ليغادره الوهج السحري الذي يجعله يعيش، يأكل، يشرب، يتكاثر.

وفي اللحظة التالية، وبمجرد تلامس البتلات للمالح، تستطيع أن تراه، ذلك الوهج الذي يتسلل من الساق المقطوعة إلى الكأس التي تحمل البتلات ثم ينتشر ببطء إلى الأعلى كالثعبان، ليطوق المبسم والأسدية والبتلات، لتنتصب الزهرة كعروس خلابة الحسن أسفل المياه، إنها حياة بعد موت، توهج بعد انطفاء، فجر أتى بعد ظلمة طويلة!

تهادى القارب الأبيض بحوافه الزجاجية المنمقة على صفحة المياه، بيد أنه من غير العدل أن نطلق عليه قاربًا فهو أقرب ليخت صغير الحجم.

أمواج صغيرة هادئة تمر من أسفله لتُكسبه حركة موضعية في مكانه كمهد رضيع تهدهده أمه، في حين استلقت تلك الفتاة على بطنها مسندة صدرها على طرف القارب ومُلقية بنظرها على تلك الزنبقة البيضاء التي تُطبق يدها عليها وتنبض بوميض مبهر أسفل المياه، هكذا هي تذكارات الحب بين العشاق.. ورقة خطاب أو زهرة تستحيل إلى جواهر غالية الثمن في قلوب المحبين وهذه الزهرة البيضاء كانت واحدة من تلك التذكارات.

من خلفها يقف شاب أسمر، قوي البنية، يتأملها، والعاطفة التي يخالطها التردد تعصر قلبه عصرًا.. "يجب أن أفعلها الآن"، هكذا دوى الصراخ في عقله، اقترب منها ببطء بينما كانت هي في عوالم أخرى مع الزهرة أسفل المياه، نفس عميق ثم ركع ليلمس قدمها البيضاء العارية فتنبهت ونظرت له بابتسامة يملؤها الوله، أراد أن يبتسم لكن شفتيه

صدر منهما تعبير غريب بين ابتسامة وصراخ ضمير على وشك الموت، لكنه لم يفكر كثيرًا.. أغمض عينيه.. رفع قدميها عاليًا، لتندفع منها صرخة ممزوجة بضحكة من يحسب هذا مزاحًا، والتي اختفت سريعًا ما إن رأت ملامح وجهه الجامدة، ليحل محلها الرعب وعدم التصديق!

أصدرت المياه صوتها المألوف عندما تبتلع شيئًا، ازداد توهج الدوائر الثلاثة في جبهة القاتل بينما علا وميض مثيلتها في جبهة حبيبته والزنبقة البيضاء في يدها.. أسفل المياه !!

* * *

إنه الظلام، ظلام مطبق يتخلله صوت أنفاسها شبه الميتة، ظلام ينبع من داخلها ليغطي أرجاء الغرفة الرمادية وربما الكون كله ظلام، بالرغم من أن الغرفة مضاءة بضوء خافت، اقتربت بزيها الأحمر من الباب ونادت بغضب: "أغلق هذا الضوء"، أتاها صوت ساخر من خلف الباب: "لم العجلة سيدتي؟ ستغرقين في ظلام أبدي بعد بضع دقائق."

تراجعت لتجلس في ركن من أركان الغرفة جامعة ساقيها لقفصها الصدري، ناظرة إلى الحائط ومولية ظهرها للباب، لقد سئمت الانتظار، متى سيخفت هذا الضوء؟!

دقائق مرت وسمعت صوت الأقدام بالخارج ثم صوت الباب يُفتح، رفعت رأسها وابتسمت، لقد آنت اللحظة!

اقتادها عسكريان خلال ممر هبوطًا عبر بضع درجات ثم دخولًا للغرفة المنشودة.. غرفة الإعدام!!

هناك شيخ ومجموعة من الرجال تتفاوت رتبتهم العسكرية، ترى شفتي الشيخ تتحركان وتعرف أنه يُلقي عليها عظتها الأخيرة، لكن بالكاد تلج كلماته إلى أذنيها، الله.. الرسول.. التوبة، حسنا.. هي تعرف أنها ستذهب للضفة الأخرى التي عبرها الكثيرون قبلها ولم يعد أحدهم ليخبرنا ما الذي حدث، قد تجد الرحمة وقد تجد العذاب وقد يُطبق الظلام عليها لتكن هذه النقطة هي النهاية الفعلية، أفكار متزاحمة تدور بخلدها، هي فقط تريد أن تُغمض عينيها وتغيب عن الوجود للأبد وهي متيقنة أن الضفة الأخرى أفضل بكثير!

يتوقف الكلام ليُفسح المجال للفعل، الآن يتم تغطية وجهها بهذا الغطاء القاتم، وسط الصمت، الآن يتحقق مرادها الأول.. الظلام، ثم

لحظات ويتم جذب المقبض ليتحقق مرادها الثاني.. العبور للضفة الأخرى !

* * *

أصوات النورس المميزة تعلو في الأجواء، الزرقة تغطي كل شيء في هذا المكان كسلطان يرفض أن يشاركه أحد عرشه، وعبير المالح تحمله الرياح لمسافات ليتخلل هذا الأنف الصغير الذي بدأت تتسارع عملية الشهيق على بوابته، وبدأ الصدر من أسفله يعلو وينخفض في حركات سريعة إيذانًا ببدء استيقاظ صاحبته، التي صدرت عنها صرخة صغيرة عندما استقبلت عيناها الضوء، الجسد مازال خامدًا في خوف وترقب، بينما العقل يفكر بسرعة.. هل هذه هي الضفة الأخرى؟!

ببطء تنهض لتجد أنها كانت نائمة على فراش صغير في غرفة ضيقة تتهادى!

نعم.. الغرفة تتحرك كأن هناك من يحملها ويتمايل بها بخفة، أدركت أين هي عندما رأت الزرقة من النافذة الدائرية الصغيرة وفهمت أخيرًا لم تتحرك الغرفة، يبدو أنها في سفينة ما! خرجت من الغرفة إلى ممر به بعض

الغرف أيضًا والذي يشبه طابقًا في فندق ما، سارت ببطء واضعة يدها على الجدار وقد بدأ الدوار يتمكن منها، أصابها هبوط ورغبة في القيء جعلاها تجلس مستندة على الجدار ورافعة رأسها لأعلى، ثم لحظات وعاودت سيرها، صعدت بضع درجات لتجد أنها على سطح السفينة، ولتجد أنها ليست وحيدة !

الدهشة والحيرة عالقتان في العيون، الترقب والقلق طغيا على الجميع، يجمعهم الزي الأحمر المميز للمحكوم عليهم بالإعدام، ويجمعهم أيضا ذلك الوشم الأحمر الذي طُبع على جبهة كل واحد فيهم، وشم دائري بداخله ثلاثة دوائر متداخلة!

يبدو أن الفتاة كانت آخر من استيقظ؛ لأن الجميع كانوا جالسين في توتر بعد أن فرغت دهشتهم الأولى، قال لها أحدهم بنبرة سخرية: "اعتقدنا أنكِ ميتة ."!

تكلمت بالأسئلة التقليدية قائلة: "أين نحن؟ من أنتم؟."

لم يبال بالرد، فتقدم منها شاب آخر قائلًا: "لقد استيقظنا جميعا لنجد أننا على متن تلك السفينة ."

قالت ساهمة: "المفترض أني ميتة الآن ."!

- هذا من المفترض لنا جميعًا!

نظرت له مستفهمة فواصل حديثه قائلًا: "نعم.. كلنا محكوم علينا بالإعدام ."

الآن لنلق نظرة أقرب على تلك المجموعة الغريبة المتنافرة التي جمعها ظرف واحد.. الحكم بالموت!

***تشاي لي**

الجنسية: صيني.

العمر: 55.

مواصفات شكلية: متوسط الطول بملامح آسيوية صميمة.

***إيبو ماساي**

الجنسية: أفريقي من كينيا.

العمر: 35.

مواصفات شكلية: أسود، طويل البنية، مفتول العضلات.

***بلال إمران**

الجنسية: باكستاني .

العمر: 42.

مواصفات شكلية: طويل، نحيل، أسمر، شعره أسود كثيف وملامح هندية.

***رامو**

الجنسية: لاجئ سياسي متشعبة جذوره فلا يعرف له وطنًا.

العمر: 30.

مواصفات شكلية: متوسط الطول، قمحي اللون برأس حليق وملامح دقيقة، عينان فيهما نسبة صغيرة من الحول .

***ميلان ديميتري**

الجنسية: روسي.

العمر: 28 .

مواصفات شكلية: متوسط الطول، أصهب ذو عينان زرقاوتان خبيثتان .

***أونغ رسول**

الجنسية: ميانمار.

العمر: 32.

مواصفات شكلية: قصيرة القامة بقوام ممتلئ قليلًا، شعر أسود ناعم وبشرة سمراء وملامح تشبه الفلبينيات.

*** تقية إبراهيم**

الجنسية: إيرانية.

العمر: 35.

مواصفات شكلية: طويلة ذات قوام ملفوف، شعر أسود كثيف وطويل، وملامح حادة قليلا.

***أسيا عز الدين**

الجنسية: مصرية.

العمر: 29.

مواصفات شكلية: متوسطة الطول، بشرة فاتحة، ملامح طفولية، شعر بني قصير لا يتعدى رقبتها، أما عن العينين فبهما نسبة صغيرة من الحول!

* * *

عرفت آسيا من رامو أنهم بحثوا في أرجاء السفينة جيدًا فلم يجدوا عليها قبطانًا أو طاقمًا يوجهها، يبدو أنها تسير آليًا لوجهة لا يعلمها إلا الله ومن جمعهم على متنها.

بعد أن استيقظوا من سُباتهم العميق وبعد أن هدأت انفعالاتهم الخائفة من ذلك الوضع الغريب، تعارفوا سريعًا بالأسماء وبالجنسيات، وبما أنهم جُمعوا من بلاد شتى فكانت اللغة الإنجليزية هي اللغة المستخدمة في تفاهمهم .

طيور النورس مازالت تُحلق في الأجواء مصدرة ذلك النفير المميز، وبالرغم من عدم وجود أي أرض تلوح في الأفق، والجمع ما بين جلوس وبحث محموم في أرجاء السفينة عن أي إجابة للأسئلة التي تعصف بداخلهم، لكن هذا التنقيب كان بلا جدوى، الانتظار إذن هو سيد الموقف.

تنظر إلى الأفق البعيد، حيث الأزرق سائد ولا متناهي، تنظر إليه بينما يحملها إلى عوالم أخرى، عوالم ماضيها الذي احتل فيها بحر الإسكندرية موضع الخلفية الثابتة، كانت تُلقي إليه بخباياها وأسرارها

يوميًا، وها هي تنظر إلى الأمواج الفاترة فترى ما سكبته في مياه الإسكندرية حاضرًا أيضا هنا، الأزرق واحد والمياه واحدة وإن كانت لا تعرف في أى بقعة من البسيطة هي الآن، كانت واقفة في الطابق الأسفل من السفينة عندما حانت منها التفاتة إلى الأعلى، حيث سطح السفينة، لتجد رامو واقفا يتطلع إليها! أشاحت بعينيها وكذلك هو، غريب أمره، هو الأكثر تلطفًا مع الجميع، لكن الأكثر غرابة هو ذلك الملمح المشترك بينهما!

النسيم يعلو ويهب، يزداد ويشتد، يتقدم في العمر ليتحول من نسيم رقيق إلى رياح تنذر بالخطر، كأنه طفل يصبح رجلًا مفتول البنية والعضلات، سارعت آسيا وتقية بالصعود إلى سطح السفينة حيث البقية المتوترة التي لا تعرف ما الذي يوجد في الصفحة القادمة، الغيوم تتكاثر، الرياح تنهض كالعملاق من سباتها، السفينة تزداد سرعتها كسيارة مندفعة إلى هاوية، رامو يناشد الجميع بالتمسك جيدًا كأنه قائد المجموعة، إيبو الأفريقي يصرخ من مقدمة السفينة: "إنها دواااامة."!!

علا الصراخ في حين ابتلعت الهوة ذات الألواح والدسر بمن فيها!

❁ ❁ ❁

أرض أولى

هناك في التبت!

لمن الأرض؟!

تشاي لي

من الوادي المغطى بالأدغال

صخور بيضاء تبرز

وفي السماء الباردة

أوراق حمراء تتناثر

وعلى الدرب الجبلي

لم ينزل المطر.

لكنما من زرقة الفضاء

يكاد ثوبي بالندى يقطر.

وانغ وي.. من الأدب الصيني القديم .

في غياهب عقله يسمع الطرقات، هناك من يطرق على باب عقله بإلحاح، طرقات قادمة رأسًا من سقف العالم المهيب، لتهبط بسرعة الصاروخ عبر الجبال والوديان والسهول والأراضي إلى تلك السفينة العجيبة، ثم إلى الأزرق المالح وذلك الشاطئ المغمور بضوء فضي ساطع، صدمات تهبط من عقله إلى قلبه ليستيقظ، إيبو بقبضتيه القويتين يكيل الضربات إلى صدر تشاي لي الراقد على الرمال المبللة وسط الجمع المحدق به، مرت دقائق معدودة لكنها ثقيلة، قبل أن يُصدر الآسيوي ذلك السعال المتكرر، ليفرغ ما في جوفه من مياه مالحة مختلطة بالرمال على الشاطئ، ببطء ينهض مستندًا على رامو وإيبو، لينقلاه من الرمال المبللة إلى الجافة حيث جلست المجموعة في شبه دائرة صغيرة.

الوقت ليل لكن الشاطئ مضاء كأفضل ما يكون بضوء القمر الفضي الساطع، أو للدقة أكثر بالضوء الصادرمن تلك الأقمار الثلاثة في السماء!

قالت تقية وهي تنظر للأعلى بافتتان: "إنها بنفس شكل الوشم الذي نحمله على جباهنا."!

قال تشاي لي بإنهاك: "أنكون في كوكب آخر؟."

أعقبته آسيا قائلة: "أو بعد آخر."!

قال رامو بهدوء: "أيا يكن هذا المكان، علينا أن نبقى معًا لنرى كيف سنخرج منه سالمين."

قال ميلان بنبرة سخرية: "ربما كان من الأفضل أن نموت على أن نسقط في تلك المتاهة ."

قال إيبو ساهمًا: "ربما نحن موتى بالفعل."!

تنهدت أونغ مغمضة عيناها كأنها تبعد ذكرى للماضي القريب الذي أصبح كأنه منذ قرون، ساد الصمت ليكتنف الجميع.. صمت لا يقطعه إلا الأنفاس المترقبة للسبعة، بعدها تكور كل واحد منهم في ركن ليحملهم الموت المؤقت إلى يوم آخر.

* * *

تصاعدت الأبخرة من الأوعية البيضاء الثلاثة الموضوعة على تلك المائدة الصغيرة ذات الزخارف المنمقة، حاملة رائحة الشاي بالزبدة الساخن شهي المذاق، الذي امتدت له يد تشاي لي أولًا ليرشف منه بضع رشفات نقلت مزيدًا من الدفء لجسده. هنا في منزل تشاي لي

حاكم منطقة لوبوي جنوب شرق التبت، عُقدت تلك الجلسة الصغيرة التي شملت "كانغ دي هو" مسؤول مصلحة الضرائب و"هان ماكوتو" مدير البنك الإقليمي التابع للحكومة الصينية.

تكلم هان قائلًا: "الأوضاع تزداد توترًا في أرجاء التبت، علينا أن نطلب من الحكومة إرسال تعزيزات من الجيش إلى المنطقة تحسبًا لانتقال تلك الاضطرابات إلى لوبوي."

وافقه كانغ قائلًا: "بالفعل سيد تشاي لي، العديد من الاشتباكات حدثت بين الشرطة والتبتيين، لقد بدأوا يهاجمون بيوت الأثرياء والأعيان من الهان في لاسا، ونخشى أن تمتد كل تلك الاضطرابات إلى هنا، علينا أن نأخذ احتياطاتنا تحسبًا لأي طارئ في الأيام القادمة."

تنهد تشاي لي ثم قال ببطء: "الأمور في لوبوي هادئة، والعلاقات بين المواطنين من الهان والتبتين يسودها الاستقرار، وهذا ما عملت على تحقيقه منذ تسلمي لمنصبي، إذا رأى المواطنون فرق الجيش المسلحة في المدينة فسيشعل فتيل النار في القلوب، وسنكون هكذا قد زرعنا الفتنة بأيدينا في البلدة."

قال هان: "بيوتنا وعائلاتنا ومصالحنا هنا ليست بأمان سيد تشاي لي، الأمور من الممكن أن تشتعل في أى لحظة، مهما بدا الوضع هادئًا إلا أن فتيل الخلاف سيبقى في الصدور ولن يغيره شيء، يستلزم الأمرمشكلة سطحية عابرة، كمشادة بين رجلين أو خلاف في الرأي، عندها ستبرز الكراهية من مكمنها وسيشتعل ذلك الفتيل."

قال كانغ: "أتفق مع هان سيد تشاي، ما أسرع بروز الخلاف، عندها سيتعصب كل فرد لقوميته وستُنسى كل سنوات الاستقرار في لحظة، هؤلاء التبتيون لن يتذكروا كل ما فعلته الحكومة الصينية لتعمير وتطوير التبت والإنجازات التي لمسوها على أرض الواقع، وسينجرفون وراء بضع كلمات من أي راهب في المعبد ليدمروا كل ما فعلناه."

قال تشاي: "هنا تكمن البداية كانغ.. بداية الاشتعال، أن تقول هؤلاء التبتيون، كأننا قوم وهم قوم آخرون، كل تلك السنوات كنت أحاول محو كل تلك المسميات.. هان، شلبا، لوبا، كانبا، كلها مسميات لقومياتنا المتعددة، لكن لو نظرنا إلى تلك الجنة التي أعطاها لنا الإله

والتي نعيش على أرضها، ولو نظرنا إلى ملامحنا المتطابقة لنبذنا تلك العصبية القبلية التي أحرقتنا بلهيبها لسنوات ."

تبادل كانغ وهان نظرات غير مقتنعة، في حين التزما الصمت ولم يجدا ردًا مقنعًا ليواصلا الجدال، صمت لم يطل كثيرًا حيث استأذنا بعدها وانصرفا بخيبة أمل ظاهرة من بيت المحافظ، بعد أن صارا وحيدين، تكلم كانغ قائلًا بسخرية: "تشاي لي يعيش في عالم آخر، نظرته الحالمة تلك ستدمرنا ."

قال هان: "أعتقد أن علينا التحرك نحن لحماية أنفسنا وقومنا، لن ننتظر حتى يتم تدمير كل ما بنيناه على تلك الأرض من أجل مجموعة من الفلاحين، لو استشعر التبتيون ضعف الحاكم، ولو وصلت تلك الاضطرابات أرض لوبوي، فسنفقد السيطرة على زمام الأمور وسيضيع الإقليم من أيدينا وستكون أول حبة تنفرط من العقد، ولربما بعدها تضيع التبت كلها من أيدي الصينيين."!

تظل قضية التبت من أهم القضايا التي احتلت حيزًا لا بأس به في جلسات الأمم المتحدة، باعتبارها واحدة من الأراضي محل النزاع مثلها مثل فلسطين المحتلة وإن اختلفت الملابسات، إنها التبت.. قلب آسيا

الميت كما كانت تسمى قديمًا بسبب الغموض الذي كان يحيطها، لتضاريسها وخارطتها الجغرافية الوعرة، وكما تسمى أيضًا سقف العالم حيث بها قمة إيفرست أعلى نقطة في العالم.

بدأ الخلاف بعد أن نصب الدالاي لاما ملكًا إلهيًا لأرض التبت.. حسب البوذية التبتية.. وكان لا يزال في الخامسة، مما أزعج الصينيين الذين فرضوا له نائبًا هو البانتين لاما وذلك عام 1940، بعدها بعشر سنوات، غزت الصين الشيوعية أرض التبت لتصبح ذاتية الحكم في إطار جمهورية الصين، ولنقل إن الصين تعتبر التبت جزءًا لا يتجزأ من أراضيها، عام 1959 انتفض سكان التبت للاستقلال عن الصين، لكن الصينيون سحقوا الانتفاضة واختفى الدالاي لاما، الذي ظهر فيما بعد في الهند، حيث قام بتشكيل حكومة تبتية في المنفى ووضع دستورًا لتطبيقه عند رجوعه، كما حاز فيما بعد على جائزة نوبل لأنه وضع خطة لإحلال السلام في التبت وحل النزاع.

أعلن جورج بوش عام 1991 قرارًا قانونيًا بالكونجرس، يقتضي أن التبت دولة محتلة لذلك حذرت الصين أمريكا من التدخل في شئون

التبت؛ لأنها جزء من الصين، إذا تحدثنا عن القوميات في التبت، فسنقول إن هناك قومية الهان، وهي صينية خالصة ويشغل أبناؤها الكوادر والمناصب العليا، وهناك التبتيون بعرقياتهم من لوبا وكانغبا وشلبا ويعملون بالزراعة والرعي والحرف اليدوية .

لو تحدثنا بصوت الصين، فسنقول إن التبت تحت حكم الدالاي لاما، كانت مجتمعًا عبوديًا إقطاعيًا، حيث رجال الدين في المعابد يحتكرون كل الأراضي الزراعية والغابات والمراعي، بينما حكومة الصين حررتهم من العبودية والإقطاع، كما قامت بتعمير التبت وبناء مدن عامرة ومتطورة، أما لو تحدثنا بصوت التبتيين، فسنقول إن التبت دولة ذات سيادة مستقلة، وأن الصين جعلت التبتيين يعيشون كالأقليات في وطنهم، بعد أن نقلت الكثير من الصينيين للعيش في التبت تحت مسمى الإصلاح والتعمير، وجعلت اللغة التبتية على وشك الانقراض لأن اللغة الصينية حلت محلها في المعاملات، وكذلك قيدت الحرية الدينية وفرضت المزيد من تلك القيود على الرهبان وقامت بهدم الكثير من الأديرة، إذن الصين هنا تعمل على محو هوية التبت .

الآن فهمنا أن تشاي لي نشأ بين هذين الصوتين، هو صيني من قومية الهان، لكنه وُلد في التبت وكبر فيه ومضى به العمر حتى أصبح محافظًا، تزوج وله من الأبناء ثلاثة، لكن بعد وفاة زوجته وازدياد الاضطرابات في الوطن، رغبوا في الرحيل لبكين حيث التقدم والمدنية وبقى هو في لوبوي، مذ كان صغيرًا كان يكره تلك المسميات، إن الأسماء تجعل الناس ينقسمون ويختلفون، من هم الهان ومن هم أبناء لوبا؟ كلهم نفس الملامح يعيشون على نفس الأرض، ما هي الصين؟ وما هي التبت؟ إن هي إلا أرض الله الممتدة والبشر من يصر على وضع الخطوط والتسمية والتقسيم، ما هي البوذية التبتية أو البوذية الهندية؟ ما هو الإسلام أو المسيحية أو اليهودية؟ مسميات مختلفة يريد بها البشر كيانًا أسمى واحدًا وهو الإله لكنهم تحت تلك المسميات المختلفة يرزحون تحت الخلاف والحروب.

في نظر من يعرفه، هو بوذي يذهب إلى المعبد ليشعل الشموع ويقف خاشعًا أمام تمثال بوذا، لكن كما قلنا، هو يكره المسميات، هو يؤمن بوجود الله، الحقيقة الوحيدة المطلقة في الكون، ويرى أن البوذية ما هي إلا مسمى لفهم الكون والتعامل معه، للوصول إلى روح الإله في

النهاية، كانت روحه راقية كأنه فارس من فرسان القرون الوسطى، يؤمن بالإله، بالخير، بالإنسانية، بالوطن والأرض، هكذا كان تشاي لي زهرة رائعة ونادرة، حالم كما يراه أو يتهمه كانغ دي هو وهان ماكوتو كبار الهان، وككل الأزهار الرائعة كان لا بد أن تمتد له الكثير من الأيدي لتقطفه!

* * *

العشب يَنتشرُ عبر السهل
كُلّ سَنَة يَمُوتُ، ثمّ يَزدهرُ ثانيةً
يحترق بنيرانِ المرجِ
لكن لا يتحطم
حين تهب الرياح الربيعية
تعيده للحياة
رائحتَه تَغْزو الطريقَ القديم
يَجتاحُ أخضره الزمرّدي
البلدة المتهالكة.

* * *

غمر ضوء النهار الأجساد المتكومة النائمة، ليستحثها على النهوض لمواصلة هذا الطريق المفضي إلى المجهول، عندما خطت أقدامهم على أرض الجزيرة، لم يعط لهم الليل فرصة رؤية معالم المكان من حولهم بوضوح، بالرغم من الضوء الفضي المنبعث من الأقمار الثلاثة، استقبلت أعينهم ضوء الشمس الذي كان يسربل الأجواء معطيًا إياها لون غريب، لم يكن بالضوء الأصفر المميز لأشعة الشمس، كانت درجته في منطقة متوسطة بين الأصفر والأحمر والبرتقالي، لكنه كان لونًا مريحًا للعين بطريقة لا توصف، هذا بالإضافة إلى أن الطقس كان في أتم اعتداله، بعدما نهضوا من رقدتهم، وجدوا أن الرمال التي كانوا نائمين عليها زرقاء زهرية اللون، تغطى جميع أرجاء الجزيرة بدءًا من منابت الـشاطئ وامتدادًا إلى الداخل المليء بالأشجار.

وقف الجمع الصغير، بأرديتهم الحمراء وحقائب ظهورهم الصغيرة الفارغة التي وجدوها على السفينة، يتأملون تلك الأرض الزرقاء التي تستحم في الضوء العجيب، وفي ذهن الجميع نبتت نفس الفكرة، لكن تشاي لي نطقها أولًا.. "أتكون تلك هي الجنة؟!"، لم ينبس أحدهم

بكلمة، بل استغرقهم المشهد لبضع دقائق كمن سقط في غيبوبة، قال رامو بعد فترة صمت: "لا نعرف بعد ما الذي ينتظرنا، نحن مازلنا على الـشاطئ، علينا أن نتوغل بالداخل لنستكشف المكان."

قال ميلان بعد أن أفاق موجهًا حديثه إلى تشاي لي: "أي جنة تتحدث عنها؟! لو لم تخني الذاكرة أعتقد أننا جميعًا مجرمون، وإلا لماذا حُكم علينا بالإعدام؟!

قال رامو: "تحدث عن نفسك، ليس كل من حُكم عليهم بالإعدام مجرمون يا ميلان."

رد عليه ميلان قائلًا: "إذن ماذا فعلت أيها المتحاذق ليرمي بك القدر ها هنا؟"!

صمتت النسوة الثلاثة، كأنهن يدرءن عن عقولهن هذا الحوار المؤلم الذي ذكرهن بألم مخفي بين الضلوع، بينما تكلم إيبو قائلًا: "نعم كل منا له ماضيه، لكن هل عينك أحد قاضيًا علينا مستر ميلان؟ أنت المتذمر الوحيد هنا."

رد عليه ميلان ببرود: "لم أوجه إليك الحديث أيها الزنجي."

اشتعلت عينا إيبو غضبًا، وفي لحظات أصبح أمام ميلان ورفعه عاليًا ممسكًا بمجمع قميصه، فبدا كالفأر الأحمر بين مخالب وحش أسود وكاسر، ثم قال من بين أسنانه: "كلمة أخرى وسأدفنك هنا أيتها الحشرة البيضاء القذرة ."

احتقن وجه ميلان برعب، تراجعت النساء الثلاثة، تحفز تشاي لي وبلال، في حين اقترب رامو من إيبو وقال له بهدوء: "إيبو.. تعقَّل ولا تُلق له أذنك، لن نقتل بعضنا هنا، لا شأن لكل واحد هنا بما حدث في ماضي الآخر، كل يغلق الباب على ماضيه، ونحن وليدو تلك اللحظة وسنمر منها معا ."

ثم وجه حديثه إلى ميلان قائلًا: "لن يفيدك التصرف بحقارة هنا ميلان، إذا عطلت المسير لن نتورع عن إقصائك، وأعتقد أن إيبو سيفعلها بسهولة."

بدا ميلان موشكًا على الموت، بعدها أطلق إيبو سراحه ليسقط على الأرض يسعل ويلهث، وسط النظرات المصوبة عليه والتي اختلفت ما

بين ازدراء وشفقة ولا مبالاة، بعدها تكلم رامو كعادته القيادية قائلًا: "هيا بنا إلى الداخل."!

باتجاه الأشجار العالية، الواقفة كالشواهد الصامتة على المسرحية التي تجري أحداثها على أرض الجزيرة، تحرك الجمع بخطوات وئيدة مولين ظهورهم للـشاطئ، احتفظت الأرض بلونها الأزرق الزهري كلما ازدادوا توغلًا بالداخل. أشعة الشمس تجد طريقها من بين الأغصان المتشابكة القوية، لترسم بقعًا من الظل والضوء على الأرض، أوراق الشجر تلونت بلون فيروزي من أجمل ما يكون، وقد أعطته الأشعة رونقًا خاصًا وأكسبته المزيد من البريق، في حين تدلت من الأغصان جواهر كريستالية الشكل!

الصمت سائد لا يقطعه إلا صوت خطواتهم على الأرض وأنفاسهم المبهورة بهذا الجمال، توقفت آسيا وتقية بالقرب من أحد الأغصان المتدلية، وامتدت يد آسيا لتقطف واحدة من تلك الجواهر، وما إن لمستها حتى قالت: "ملمسها ليس زجاجيًا، إنها كالورقة."!

اقترب منهما رامو وأخذها منها، ثم ضغط عليها بخفة فانكسرت على راحة يده أمام أعينهم المندهشة، لينز منها سائل أبيض اللون، رفع رامو راحة يده ناحية شفتيه وتذوقها، بعدها أغمض عينيه بافتتان قائلًا: "إنها ثمار وهي رائعة المذاق."!

انتشرت المجموعة بين الأشجار ليجمع كل واحد فيهم ملء يديه من تلك الثمار وانشغلوا بتناولها كالمحرومين، لقد تذكروا فقط الآن أن معدتهم جافة متيبسة كالصحراء!

جلس تشاي لي على الأرض ليلتهم الثمرات شهية المذاق، في حين كان يغمغم لنفسه قائلًا: "أيُعقل أن تكون تلك هي الجنة؟."!

* * *

أحكمت هيسوكا ربط مئزرها الوردي وشرعت بهمة في تنظيف أرجاء المنزل، إذ كانت تعمل خادمة في منزل كانغ دي هو مسؤول مصلحة الضرائب، كانت هي تبتية من أبناء لوبا تعيش أسرتها في قرية ليست ببعيدة عن البلدة، تقيم في منزل السيد كانغ وتذهب لزيارة عائلتها في أعالي الجبال مرة كل أسبوع. فتاة رقيقة هي، بملامح آسيوية

وشعر أسود أملس وطويل يصل لآخر ظهرها، بالرغم من أن البلدة أكثر تحضرًا ومدنية من قريتها، وبالرغم من أن أسرة سيد كانغ تُحسن معاملتها كأنها واحدة منهم، إلا أنها لم تكن ترتاح بالبلدة ولم يخرجها من قريتها إلا الاحتياج، فبعد مرض والدتها، اضطرت للخروج هي وإخوتها للعمل في المدينة لجمع تكاليف العلاج الباهظة، وبالتأكيد كان هنالك سبب آخر تحن من أجله لقريتها، وهو ذلك الشاب التبتي الوسيم الذي خُطبت له، والذي كانت تنتظر نهاية كل أسبوع بشوق من أجل أن تراه، لكن الأيام كانت تمر، وصحة والدتها بدأت تتلمس طريقها للتحسن، وبدا أنه لم يتبق لها وقتًا كثيرًا في بيت السيد كانغ، ثم سترحل إلى قريتها بلا عودة، كانت تأمل، وتتوسل للأيام أن تمر لترتاح من العمل في خدمة البيوت، ولتتخلص من هذا الشاب اللزج الذي تعرف أنه يقف على باب المطبخ الآن ويرمق جسدها بوقاحة!

نعم كانت أسرة السيد كانغ لطيفة المعشر ما عدا هذا الرقيع! إنها القصة الأبدية بين المخدوم والخادمة، مضايقات يومية تصل أحيانًا لحد التحرش لكنها كانت تتفاداه على قدر استطاعتها وتُمني نفسها أنه لم يتبق

الكثير وسترحل، شعرت به يقترب من الخلف، أغمضت عينيها وأخذت نفسًا عميقًا، وببراعة -اعتادت عليها- تملصت من مكانها قبل أن يلتصق بها بلحظات!

استدارت ونظرت له بابتسامة مزيفة ثم قالت بآلية: "هل تريد شيئًا سيد سوهان؟."

نظر لها متفحصًا، ثم قال بلهجة ذات مغزى: "أريد الكثير هيسوكا، ولكن سأكتفي تلك المرة بوعاء شاي، أحضريه لي في غرفتي بسرعة ."

قالت بنفس الابتسامة: "تحت أمرك سيد سوهان."

تحرك خروجًا من المطبخ بينما غابت الابتسامة عن وجهها وسارعت لتُعد الشاي.

طرقت على باب غرفته، ثم دلفت لتضع الإناء بسرعة على المنضدة القريبة، بعدها استدارت وهي تقول بسرعة: "الشاي سيد سوهان."

اتخذت طريقها للخروج بخطوات متعجلة، لكنه كان أسرع منها تلك المرة وسبقها إلى غلق الباب، تراجعت ببطء إلى الوراء في حين تقدم هو منها بجذعه العاري، توقفت، عاودت رسم الابتسامة ثم قالت: "ماذا تريد مني سيد سوهان؟."

اقترب منها أكثر وهو يقول: "توقفي عن التصرف كالروبوت هيسوكا."!

كانت تعرف أن طريقتها تستفزه فواصلت قائلة: "أنا خادمتك سيد سوهان."!

اقترب منها أكثر وبدأت يده تمتد لتعبث بأنحاء جسدها وهو يقول: "لن تنجحي في استفزازي هيسوكا."

ظلت جامدة ولم تقاوم وهي تلمح بطرف عينيها الباب، كأنها تحسب الخطوة القادمة ثم في لحظة وبعد أن اطمأن لسكونها بين يديه، رفعت ركبتها بقوة لتضرب ما بين فخذيه، أطلق صرخة في حين انسلت هي بسرعة البرق لتغادر الغرفة بقلب يتواثب من الانفعال.

بخطوات مسرعة من فرط الحماسة، انطلقت هيسوكا في الطريق الجبلي المؤدي إلى قريتها، بعد أن اعتذرت لسيدة المنزل عن مواصلة العمل لظروف خارجة عن إرادتها، وبالطبع لم تذكر حرفًا عن سوهان، ولقد قبلت السيدة الكريمة اعتذارها بل وأعطتها مظروفًا به مبلغًا محترمًا من المال لتساعد به عائلتها، كانت تطبق على المظروف أثناء سيرها

غير مصدقة أنها فلتت من ذلك الذئب بأقل الخسائر الممكنة، بالإضافة إلى ذلك المال الذي سيُغنيها عن العمل لفترة لا بأس بها من الوقت، خطوات متلاحقة في ذلك الطريق الجبلي، والهواء ببرودته يحمل عبق قريتها التي تقترب منها الآن ولن تخرج منها أبدًا إلى أن تموت.. هكذا كانت تفكر، فلم تنتبه إلى أن هناك من ينتظرها عند مدخل ذلك الكهف المظلم!

من ضوء النهار تلقفها أحدهم إلى الظلام، بالداخل أُطبقت تلك اليد على فمها، في حين تلاقت العينان. قال هو بفحيح الثعابين: "الآن لن تبتسمي هيسوكا."!

أخذ غايته منها وسط صراخها المكتوم، ثم بعد أن انتهى، ظلت راقدة على الأرض ترتجف وهي غارقة في دمائها، وظلت يدها مطبقة بقوة على المظروف، اقترب منها وأمسك برأسها وهو يقول: "الوداع هيسوكا."!

ثم امتدت يده الأخرى بالمدية نحو عنقها!

* * *

فتح تشاي لي عينيه بسرعة وبفزع وهو يمسك بعنقه متألمًا، لتمر عليه لحظات ثقيلة بين النوم واليقظة، أدرك بعدها أنه مجرد كابوس، نهض متلفتًا لمن حوله فوجد المجموعة جالسة على مقربة منه، سأله بلال عندما رأى الفزع في عينيه: "ما بك سيد تشاي لي؟."

رد عليه وآثار النوم لم تبرحه بعد: "كابوس، مجرد كابوس سيىء."

قال له ميلان بلهجته المتنمرة المعتادة: "أنت تنام كثيرًا سيد تشاي، أتعجب من أين يأتي لك النوم ونحن في مثل هذا الوضع؟."!

نظر له رامو نظرة منعته من الاسترسال في سخريته، بعدها قالت أونغ: "هل سنواصل سيرنا إلى الداخل؟ لم لا نظل على الـشاطئ لربما وجدنا أي سفينة عابرة تُخرجنا من هنا."

قال إيبو: "ألا ترين الأقمار الثلاثة؟ نحن حتى لا نعرف على أي كوكب ألقونا."

قالت تقية: "إذا كان هذا كوكب آخر، فأين سكانه؟."!

عند هذه النقطة، تصاعدت تلك الأصوات كأنها تجيب على سؤال تقية!

توقفت جميع الألسنة عن الكلام، وأرهفت جميع الآذان السمع، كأن حواسهم كلها تركزت على جانبي رؤوسهم، تجمعوا تلقائيًا والتصقوا ببعضهم خوفًا، ثم تحركوا في اتجاه الأصوات كأنهم وحدة واحدة، الشمس على وشك الرحيل والأجواء مازالت تستحم ببقايا الضوء البرتقالي. الخطوات بطيئة وئيدة تسير تجاه ذلك الصوت الذي يشبه صوت القضم!

هناك وراء تلك الأشجار توقف صوت القضم بينما علت أصوات أقدام مسرعة كأنها تغادر المكان، عبروا تلك الشجرة ليروا المشهد كاملًا بوضوح، هناك ذلك الشيء الراقد على الأرض، أو بمعنى أدق تلك الجثة التي رقدت على الأرض، جثة تشوهت وتاهت معالمها، وبقى منها شيء واحد واضح.. زي أحمر يُشبه ذلك الذي يرتدونه!

* * *

في حضرة ذلك المكان، تستطيع أن تتأمل وأن تستحضر أنقى حالات روحك الحبيسة، ينقلها إليك الهدوء المستتب وأضواء الشموع في الأوعية المنتشرة هنا وهناك، بالإضافة إلى رائحة البخور التي تتخلل

مسام روحك ذاتها، هكذا كان يشعر تشاي لي، في حضرة ذلك المعبد الذي يوجد في أعالي الجبال، دائمًا ما كان يحب الحضور إليه عندما يغمر روحه الضيق، عندما يشعر أن هذا العالم قاسيًا أكثر مما يحتمله الأمر، وكما قلنا هو لا ينظر للبوذية على أنها ديانة بل يراها فلسفة حياة .

كان يقف من ورائه كاهن المعبد صامتًا ومنتظرًا انتهائه من الطقوس في صبر، وكان يبدو على وجهه أن هناك أمرًا جللًا يريد مناقشة المحافظ فيه، خارج المعبد، تمشيا معًا في تلك الحديقة الغنَّاء التي تحيط به، قال تشاي لي وهو يتأمل الخضرة من حوله: "كم أتمنى أن تكون نهايتي في مثل هذا المكان."

قال الكاهن: "لقد كانت حياتك مباركة سيد تشاي لي، أنت من بذر بذور السلام والحب في تلك البلدة."

قال تشاي لي: "لكني أرى القلق في عينيك أيها الكاهن."

-لن أُخفى عليك سيد تشاي لي، الأهالى في حالة غضب غير محمود، ولا أعرف بم سيفضي في النهاية، بسبب تلك الفتاة التي وجدوها مذبوحة، لقد أثبت الفحص الجنائي أنه تم اغتصابها بوحشية.

-بالطبع أعرف تلك القضية وأتابعها شخصيًا، ولن يهدأ لي بال حتى نعثر على ذلك المجرم.

قال الكاهن بتوتر: "أسرتها يعرفون القاتل."!

توقف تشاي لي ونظر للكاهن متسائلًا: "ماذا تقصد أيها الكاهن؟."

- سأُخبرك سيد تشاي لي وأنا متيقن أنك ستحقق العدالة في لوبوي، لقد أخبرت الفتاة المقتولة شقيقتها قبل وفاتها عن المضايقات التي كانت تتعرض لها في منزل السيد كانغ دي هو من قِبل ابنه سوهان، لقد كان دائم التحرش بها أثناء فترة عملها بالمنزل.

قال له تشاي لي: "لكن هذا ليس دليلًا أيها الكاهن."

-أعرف، لكن بعض أهل القرية الذين يعرفونه، رأوه بالقرب من القرية وعلى ملابسه آثار دماء في نفس اليوم الذي قُتلت فيه الفتاة.

- هذا الكلام لا بد أن يُقال أمام لجنة المحققين.

قال الكاهن ببطء: "هم يثقون أنه ستتم تبرئته لأنه من الهان، وبسبب صلات أبيه القوية بالحكومة، أهل القرية ينوون الثأر."

قال له تشاي لي بغضب: "هل تعرف توابع هذا الأمر أيها الكاهن؟ ستشتعل البلدة وستراق الكثير من الدماء."

- إذن أوقف هذا الأمر سيد تشاي لي!

-ماذا تقصد؟

-تابع التحقيق وتعرف على القاتل، وإن تيقنت أنه ذلك الشاب سوهان، فما عليك إلا أن تحقق العدالة بيديك وتنقذ لوبوي من مجزرة محتملة.

توقف الكاهن كأنه يدرس الجملة القادمة ثم تابع كلامه قائلًا: "إذا كان هو القاتل، سلمه لأهل القرية ليأخذوا بثأر ابنتهم بأيديهم."

همَّ تشاي لي بالكلام فبادره الكاهن قائلًا: "إنها جريمة بشعة، أنت لا تعرف شعور أسرة الفتاة عندما وجدوا جثتها، صدقني سيد تشاي لن تبرد النيران إلا بالقصاص العادل."

* * *

الآن يعود الضوء الفضي ليسيطر على الأجواء، الآن تكتشف المجموعة أنهم ليسوا وحيدين على تلك الجزيرة، هناك كائنات أخرى

ومن الواضح أنها مفترسة، ومن الواضح أيضا أن هناك آخرين من المحكوم عليهم بالإعدام تم إلقائهم ها هنا، لتتغذى عليهم تلك الوحوش، إذن هي ليست الجنة، كما كان يأمل البعض، يبدو أنهم فقط هنا كوجبات بشرية!

اتجه رامو بخطوات ثابتة ناحية أحد الأشجار، وبنفس الثبات رفع ذراعه عاليًا، وقام بكسر أحد الأغصان وأخذ يقلمها بيديه وبأسنانه تحت الأنظار المتسائلة، قال له إيبو: "ما الذي تفعله؟."

رد عليه دون أن يرفع عينيه عن الغصن: "أصنع رمحًا لندافع به عن أنفسنا، أم سننتظر حتى يتم التهامنا؟."!

قال تشاي لي: "هل تظنها مجدية؟."

قال رامو: "وهل سنجلس منتظرين نهايتنا؟."

قال ميلان: "أعتقد أن الجميع هنا لا ينتظر النهاية، بل يتوق إليها."!

قالت أونغ: "الخوف ليس من النهاية، بل من الرعب الذي ينتظرنا قبل النهاية."

تقدم إيبو ناحية أحد الأشجار وشرع في فعل ما يفعله رامو وهو يقول: "أعتقد أن رامو على حق، لو كان هناك احتمال، ولو بنسبة واحد

بالمئة، أننا يمكن أن نخرج من هنا أحياء لنبدأ حياة جديدة، فأعتقد أنني لن أُفلت تلك الفرصة من يدي."

ببطء وعدم اقتناع بدأ الباقون يحذون حذوهما، اقتربت آسيا من أحد الأغصان وهي تفكر.. حياة جديدة وصفحة جديدة؟! هل هذا احتمال قائم؟ وحتى لو خرجوا من هذا المكان أحياء ليعيشوا في أرض جديدة، هل هذا سيقضي على أنقاض الماضي كأنه لم يوجد يومًا؟! الحقيقة أن كم الألم بداخلها لن يُمكِّنها من فتح صفحة جديدة حتى لو أُتيح لها ذلك، هي مازالت ثابتة على موقفها القديم.. (أريد أن أغادر هذا العالم)، هي حتى لا تريد جنة، تريد أن تنتهي كأنها لم توجد يوما!

اقترب منها رامو من الخلف وعندما استدارت إليه، وجدته يمد يده بالرمح الذي صنعه من الغصن، نظرت له مستفهمة فقال: "تستطيعين أخذه، سأصنع واحدًا آخر لي."

نظرت له بخواء حقيقي، هي لا تحتاج مساعدة أو كرمًا أخلاقيًا من أحد، لكن أمره غريب جدا!، فهى تكاد ترى عينيها في وجهه، حتى أن تقية أخبرتها أن هناك شبهًا يجمع بينهما، وبالتأكيد لاحظت نظراته

المسروقة إليها، لكنها لم تكترث ولا تكترث، لذلك ردت عليه باقتضاب: "شكرا."

كان ذلك عندما انطلق الصفير!

طويل، رفيع، حاد، يتسلل إلى طبال آذانهم ليطرقها بقوة، ثم يقتحم دواخلهم دون استئذان ككف وحش امتدت داخل الأجساد لتعتصر القلوب!

سقط الجميع على الركب، وقد أمسك كل واحد منهم بصدره وهو يئن من الألم، قال إيبو بصوت عالٍ: "الآذان، سدوا الآذان."!

قاموا برفع أيديهم عاليًا لتغطية آذانهم فخفت الألم قليلًا، تبعثرت نظراتهم على الأرض بحثًا عن أي شيء ينقذهم من هذا الطنين القاتل، فلم يجدوا غير الأوراق الفيروزية المتساقطة والتي ما إن لمسوها حتى وجدوها ناعمة كندف القطن، فسارعوا إلى حشرها في تجاويف آذانهم، ليختفي الصوت بعدها تمامًا!

لمحت آسيا ظلًا يتحرك من وراء الأشجار، فاقتربت بحذر وببطء، لترى المشهد كاملًا وواضحًا تحت الضوء الفضي، لقد كان هناك، بقامة

رجل طويل من جنس بني البشر، يغطي الشعر جسده ووجهه كالغوريلا، لكنه يقف منتصبًا كرجل قوي! هو مزيج رهيب بين إنسان وغوريلا لكنه مزيج يلتهم اللحم! على الأرض كانت ترقد جثة لبشري يرتدي زيًا مثلهم، بعدها انحنى عليه ليبدأ صوت القضم الرهيب.. تشومب، تشومب! كادت أن تند عنها صرخة، لولا تلك اليد التي أطبقت على فمها لتمنعها.. يد رامو، تراجعا ببطء للوراء بظهريهما إلى أن رفع ذلك الكائن رأسه كأنه انتبه أنه ليس وحيدًا، هنا تمكن الخوف منهما وزادا في الركض، وما إن لمحهما الباقون حتى تسلموا منهما الإشارة، ليركض الجميع ولتنفلت الحناجر بالصراخ مدنسة حرمة ليل الجزيرة الصامت!

* * *

بمتابعة التحقيقات الخاصة بالقضية، وبتعيين محققين سريين بعيدًا عن سير القضية الرسمي، أصبح الأمر جليًا أمام تشاي لي، وكما أخبره الكاهن.. الفتى مذنب، كما كان جليًا أيضًا أن العدالة لن تأخذ مجراها الصحيح، فاسم الفتى لم يرد أصلا بقائمة المتهمين، الغريب أن البلدة

كلها أصبحت تعرف أنه مرتكب الجريمة وكأن الأمر أصبح مفضوحًا بصمت، الكل يعرف لكن لا أحد يتكلم، أما عن تشاي لي فقد حسم قراره أخيرًا.

" -إذن ما الذي تنوي فعله مع سوهان؟"، قالها تشاي لي لكانغ، بينما كانا جالسين في منزل الأخير يتبادلان الحديث. قال كانغ بتلعثم: "في أي شأن سيد تشاي لي؟."

قال تشاي لي ببرود: "لا داعي للمواربة في الحديث كانغ، علينا أن نواجه الوقائع."

همَّ كانغ بالرد، لكن تشاي لي عاجله قائلًا: "سوهان مثل ابني وهو من الهان، فلن أسمح أن يحدث له سوء، أعتقد أنه من الأفضل أن يغادر لوبوي حفظًا لسلامته، هل هو هنا الآن؟."

تنهد كانغ بارتياح ثم قال: "نعم.. هو بالمنزل، الحقيقة أنك أرحتني سيد تشاي لي بحديثك هذا، إنه شاب صغير ومعرض لارتكاب الأخطاء ولقد غضبت عليه وعاقبته، لكن بالنهاية سيظل ولدي ولن أسمح أن يصيبه سوء، لقد رتبت لرحيله بالفعل من لوبوي."

تنهد تشاي لي بارتياح، ثم قام من مجلسه وهو يقول: "الحقيقة يا كانغ، أنك أنت من أراحني باعترافك هذا، لقد قطعت السبيل على أي ذرة شك بداخلي."

نهض كانغ وهمَّ بقول شيء، لولا أن قاطعه صوت اقتحام الباب، وإذ بمجموعة من الرجال بملابس قروية يدلفون إلى مجلسهم، نظر لهم كانغ بارتياع ثم نظر لـتشاي لي ليجد ملامح وجهه جامدة كأنه يعرف بما يحدث، وقبل أن ينطق بكلمة، وجد ثلاثة منهم يقتادون سوهان كالفأر الذليل وامرأته من خلفه تولول، نظر لـتشاي لي بعدم تصديق ثم قال بلهجة مرتعشة: "ما الذي يحدث هنا تشاي لي؟."

قال تشاي لي بهدوء: "اقبل الواقع كانغ واقبل خسارتك لابنك، الجريمة التي ارتكبها كانت ستُغرق أرض لوبوي بالدماء.. دماء الهان ودماء أبناء لوبا، لا بد أن يدفع ثمن جريمته، لن أضحي بأرواح المئات من أجل روح قاتلة ودنيئة، هذا هو الحل الوحيد."

خرج الرجال بالشاب الذي ذبل لونه كأنهم يسوقونه إلى منصة الإعدام، والحقيقة أن منصة الإعدام أهون بكثير مما ينتظره في القرية!

قبل أن يغادروا المنزل، استدار أحدهم وانحنى باحترام تجاه تشاي لي، ثم قال: "شكرا سيد تشاي لي."

تحرك تشاي لي للخروج من المنزل ومن ورائه بكاء الزوجة وكانغ الذي سقط على الأرض وأخذ يرغى ويزبد ويتوعد: "ستندم تشاي لي، لن يمر هذا الأمر مرور الكرام."

نظر له تشاي لي بثبات وقال: "تقبَّل خسارتك كالرجال كانغ."

ثم غادر المكان والصراخ مستمرًا من خلفه: "ستندم تشاي لي، ستندم."

* * *

في أبعد مكان ساقهم إليه ركضهم الحثيث، جلسوا لاهثين ومتقاربين ترتعش أطرافهم، وقد جلس كل منهم متمسكا برمحه وبوضعية الدفاع، تحسبا لأي هجمة محتملة من تلك الكائنات، قالت أونغ وهي ترتعش: "الموت أهون من ذلك الرعب، كيف سنخرج من هنا؟."

قال رامو: "لقد لاحظت أن الصفير قبيل التهام الفرائس."

قال ميلان: "وما الذي يعنيه هذا؟."

-عندما انطلق الصفير كادت قلوبنا أن تتوقف، هذه هي الطريقة التي يقتلون بها، وبعد توقف القلب يبدأون فورًا في التهام فريستهم.

قال بلال: "إذن الخطر الأكبر من الصفير، فليحافظ الكل على الأوراق في أذنيه."

تنهدت تقية، ثم انفجرت في بكاء صارخ كأنها تفرغ ماسورة مياه انكتمت بداخلها، غمغم ميلان بضيق: "هذا ما ينقصنا."!

قال رامو مهدئًا إياها وناظرًا حوله بقلق: "أرجوكِ اهدأي، ستجذبينهم إلينا."

وضعت يدها على فمها ليتحول الصراخ إلى نهنهة مكتومة، بينما اقتربت منها أونغ مطوقة إياها بذراعها لتهدئ من روعها، وظلت آسيا جالسة في مكانها تنظر إليهما بوجوم، مر الوقت وهم مازالوا في تلك الجلسة المتحفزة، وقد غلبهم التعب من فرط الأدرينالين الذي تدفق في أجسادهم في تلك الدقائق الرهيبة، تكلم رامو ليقطع الصمت قائلًا: "لننام ولنوزع دوريات المراقبة على الرجال، وسأبدأ دوريتي الآن."

نظروا إليه في استسلام، الحقيقة أنه الوحيد الذي كان يملك روح المبادرة والإيجابية بينهم، وبتلقائية ودون تعيين مسبق أصبح قائد المجموعة، اتخذ كل منهم ركنه الذي سينام فيه، بينما اتجهت آسيا ناحية أحد الأشجار وحيدة لتكون بعيدة نسبيًا عنهم، اقترب منها رامو ليقول بهدوء: "علينا أن نبقى بالقرب من بعضنا.. آسيا."

نظرت له نظرة خاوية ثم قالت: "أرجوك وفر نصائحك لنفسك وتوقف عن تقمص دور القائد، أو على الأقل لا تمارسه عليَّ."

-أنا لا أمارس دور القائد، أنا فقط أريد أن تكوني بأمان مثل البقية.

نظرت له بتمعن ثم غمغمت قائلة: "شخص بهذا النبل، ما الذي ألقى به مع مجموعة من المجرمين؟ "!

صمت رامو فاستطردت قائلة: "لا يهمني معرفة ما فعلته ولا يهمني أي من هؤلاء، أنا فقط أريد الرحيل، هذه الوحوش يقتلون برحمة، يوقفون القلب ثم يلتهمون وجبتهم، وأنا لا يوجد لدي أي مانع بأن أكون أولى القتلى هنا."

تنهد رامو باستسلام وولاها ظهره مغادرًا، ثم قبل أن يبتعد تكلم قائلًا: "إذن لماذا سارعتي بالهرب عند رؤيتهم؟ ولماذا تضعين الأوراق إلى الآن في أذنيك؟! مهما قلتِ ستظل غريزة التمسك بالحياة بداخلك، ربما تنطفىء قليلًا لكنها لا تموت أبدًا"، لم ترد عليه، بل استلقت وأعطت ظهرها له، فواصل سيره ليجلس في مكان يمكِّنه من رؤية الجميع، ومن رؤيتها أيضًا!

* * *

جالس في مكتبه الأنيق يطالع بعض الملفات الخاصة على حاسبه المحمول، بينما يحتسي مشروب الشاي بالزبدة في رشفات متأنية متتالية، طرقات على الباب، ثم دلفت مساعدته الشخصية لتأخذ توقيعه على بعض الأوراق ثم انصرفت بآلية، ابتعد بنظره عن الشاشة إلى النافذة الزجاجية التي يطل منها أغصان وفروع شجرة الصنوبر الملتصقة بمبنى المحافظة، بينما تتساقط عليها ندف الثلج البيضاء.

يوم هادئ جدًا ينبئ بسلام، نجح تشاي لي في اقتناصه من براثن فتنة كادت أن تودي بلوبوي. لقد خفتت الاضطرابات في أرجاء التبت

وراح ضحيتها العديد من التبتيين ورجال الشرطة للأسف، بالتأكيد هو يشعر بالضيق لكل تلك الدماء المهدرة والتي تراق كل فترة؛ لأن النزاع لا يخفت في التبت، قد ينام قليلًا لكنه يستيقظ كل فترة ليتولد المزيد من العنف والكراهية والتعصب القبلي، لكنه على الأقل حاول أن يحافظ على منطقته وقد وُفق في ذلك لحد يُرضيه هو شخصيًا.

طرقات أخرى على الباب، ثم دلفت مساعدته لتخبره أن كانغ دى هو بالخارج، رفع حاجبيه عاليًا بحركة تلقائية، فهو لم يلتق به منذ مدة بعد أزمة ولده، لكنه أومأ برأسه لتأذن له بالدخول. الصمت أول اللقاء وتلاقي العيون بغضبها النائم، يُضفي توترًا لا بأس به على الجلسة، تكلم تشاي لي أولًا: "كيف الحال كانغ؟."

قال كانغ ببرود: "بخير.. بخير سيد تشاي لي."

-لقد عرفت أنك طلبت نقلك من لوبوي.

-نعم سنغادر أنا وأسرتي إلى لاسا قريبًا.

- مبارك، هذه خطوة جيدة، ستنتقل إلى درجة أعلى في سلمك الوظيفي.

تنهد كانغ ثم قال ببطء: "كيف قتلوه تشاي؟"!

خلع تشاي لي نظارته وفرك عينيه ثم قال بهدوء: "لا فائدة لمثل هذا الحديث، فكر فقط أن العدالة تحققت، حتى لو قدمت تضحية غالية لذلك، الأزمات ناموس حياتنا كبشر ويجب أن نسلِّم بها."

-وفر كلامك المنمق هذا لرهبان المعابد!

- ما الذي أتى بك كانغ؟!

- جئت أرد لك جميلك سيد تشاي لي.

في تلك اللحظة، انطلقت جلبة بالخارج وفتح الباب لتدلف منه المساعدة بوجه ممتقع وهي تقول: "سيد تشاي لي إن..."، لم تكمل جملتها إذ دخل في إثرها رجال مدججون بالسلاح يبدو من ملابسهم أنهم قوات خاصة من الجيش الصيني، نهض تشاي لي متسائلا، ليلقي الظابط في وجهه الكلمات المدوية: "تشاي لي، أنت قيد الإيقاف بتهمة الخيانة العظمى للدولة، بالتآمر مع الرهبان لزعزعة سيادة الحكومة الصينية على لوبوي."

* * *

جافاه النوم على غير عادته مذ وجد نفسه في ذلك المكان الغريب، هو أكثرهم هدوءًا وركيزة، كأن ثباته الانفعالى مضروبة جذوره هناك في التبت منذ آلاف السنين، القمر مازال يغمر الأجواء بالضوء الفضي والصمت مطبق حتى من أصوات الحشرات، أيعقل ألا يكون بهذا المكان كائنات دقيقة تؤنس صمت الليل بأزيزها المتصل؟!.. خاطر بدا له سخيفًا وتافهًا لا يتناسب وحجم المتاهة التي وجدوا أنفسهم فيها، نهض من رقدته ليتأمل ما حوله، كلهم نائمون، كل في ركنه الخاص وإن كانوا متقاربين، عدا آسيا التي اختارت ركنًا بعيدًا نسبيًا وأعطت ظهرها لهم بينما قربت وجهها من جذع الشجرة، "ألا تخاف تلك الفتاة؟"، هكذا قال لنفسه بصوت خافت، رأى ميلان جالسًا، يبدو أنه تسلم دورية المراقبة، لكن رأسه كان ساقطًا على صدره ويغط في النوم بصوت مسموع!

تحرك من مكانه مأخوذًا بسحر الليل، المكان كالجنة فعلًا، فالثمار الكريستالية تتلألأ تحت الضوء الفضي كالنجوم المعلقة في السماء، الواقع أن المكان كله يتلألأ في عينيه الآن! لم يشعر بذرة خوف وهو يتوغل

وحيدًا بين الأشجار، بينما تسللت رائحة رائعة إلى أنفاسه، ذكرته بعبق الليل في الوطن، تشجع وأفرغ ما في أذنيه من أوراق ليرهف السمع وهو يفكر في نفس السؤال السخيف.. (أمعقول هذا؟ لا يوجد حشرات هنا؟!)، لكن تناهى إلى سمعه صوتًا أفضل بكثير، صوت آلة الآرخو الصينية باعثة ألحانًا مستحيلة الوصف، وتلقائيًا وجد لسانه يركبها على أبيات شعر كان يحفظها....

بمُوَاجَهَة نبيذي لم أرَ الغسقَ
الأزهارُ السَاقِطةُ تمْلأُ طيّات ملابسِي
سكرانًا
أرتفعُ وأقتربُ مِنْ القمرِ في الجدولِ
الطيور بعيدة جدًا
وقليل من البشر أيضًا!

كالسكران واصل خطواته بين الأشجار يترنم، لم يكن يرى في تلك اللحظات غير الحديقة التي كانت بأعالي الجبال هناك خارج المعبد، والتي تمنى أن تنتهي حياته بها يومًا، أخذ يدور حول نفسه وهو يمسك

بصدره، هناك شعور غريب بالداخل، لا يستطيع وصفه بالألم، لأن ما يشعر به معاكس تمامًا.. شعور الخدر اللذيذ، وهكذا عندما انتهى من دورانه، وجد أنه يحدق في وجه الغوريلا البشرية !

الحقيقة أنه حتى لم يشعر بالمفاجأة، فقد سقط على الأرض بعد أن أصدر قلبه دقاته الأخيرة، وكما قالت آسيا تلك الوحوش تقتل بمنتهى الرحمة!

* * *

بين النوم واليقظة، علقت في تلك المنطقة المرهقة والتي يعرفها من يصابون بالأرق، عندما سمعت صوت حفيف الأوراق، جفلت لتنهض بينما ظلت على ركبتيها مختبئة بجذع الشجرة لترى ماذا هناك، لم تر شيئًا، فنهضت ببطء محاولة ألا تتعثر، رأت الثمار تنبض بوهيج غير المعتاد، ثم اهتز الفرع لتسقط الثمرة ولتتلقفها المياه، من أين أتت تلك المياه؟ !

سمعت من يتحرك خلفها فاستدارت لتجده شابًا أسمر وسيمًا، مفتول البنية، عارى الجذع ووشم جبهته متوهج، اقترب منها ببطء، ودون سابق إنذار لمس جبهتها لتسقط على ظهرها ولتبتلعها الأرض!

فتحت عينيها لاهثة لتجد أنها تحدق في الجذع البني ومازال ظهرها لهم، التفتت لتواجههم فوجدتهم متخشبين في أماكنهم، عيونهم على أقصى اتساع لها، ويستمعون.. يستمعون لصوت القضم.. تشومب، تشومب !

أرض ثانية

فقط لأجل المال!

أسنان يابا!

إيبو ماساي

بعدما صعدت الروح الصغيرة إلى بارئها في ذلك اليوم بالمستشفى، رأى انكسار زوجته إلى ملايين الشظايا التي أدمت روحه، لتعلمه بمدى عجز هذا الجسد الذي يبدو كجسد المصارعين، والذي كان يظن أنه جدار حامي لعائلته، لكنه لم يفعل أي شيء ليخفف حتى سكرات الموت عن صغيرته ذات الست سنوات.. صغيرته يابا !

بعينين خاويتين، ظل جالسًا على أريكته الوثيرة يتابع التلفاز دون صوت، امتدت يده إلى الريموت ليضغط على زر تقليب القنوات ليغير المحطة، لكن إصبعه ظل يضغط عليه في نقرات متتالية دون أن يستقر

على وجهة معينة، نظر لساعته بضيق وغمغم قائلًا: "لقد تأخرت، سأتأكد أن أقلل عمولتها عقابًا لذلك التأخير."!

في نفس اللحظات، كان هناك ظلًا طويلًا لذلك الرجل ضخم البنية مفتول العضلات، يتسلق مواسير الصرف على الجهة الخلفية للمنزل الفاره، ولشدة سواد لونه، لا تستطيع التمييز بينه وبين ظله الذي يرتمي على الجدران، بقوة تمسك بإطار النافذة المفتوحة السفلي، ثم بوثبة رشيقة كان بداخل غرفة النوم، بعدها بلحظات قليلة، امتدت تلك اليد السمراء الرقيقة، لتضغط على جرس الباب الرئيسي بالخارج، تنهد الرجل الأربعيني وقام من جلسته المملة أمام الشاشة، واتجه بخطوات متلهفة لفتح الباب، دلفت السمراء إلى المكان بابتسامة ملأها الغنج، ليعاتبها الرجل قائلًا: "تأخرتِ كثيرًا."

قالت بنفس الغنج: "آسفة، سأحرص أن أعوضك على هذا التأخير."

تحركت ناحية الصالون وهمت بالجلوس، لكنه اجتذبها من مرفقها وهو يقول: "لا سنصعد إلى الأعلى، أنتِ متأخرة عن ميعادك بالأساس."

من صوت الخطوات الصاعدة، عرف إيبو أنهم اثنان، درس ذهنه الموقف في لحظات معدودة، ثم اتخذ قراره سريعًا واختبأ خلف مقعد وثير وضخم، بينما أطبقت يده على المسدس المزود بكاتم الصوت تحسبًا لأي طارئ، الواضح أن الرجل معه فتاة، ومن الواضح أيضا أنهم ينوون فعلها الآن، يستطيع أن ينفذ مهمته دون تأخير، ولكنه فكر أنه لن يقتل رأسًا إضافية لم يتلق عليها أجرًا، هذا بالإضافة أن ضميره حدثه بصوت خفيض قائلًا: "لم لا تترك الرجل يستمتع قبل أن يفارق الحياة؟!"؛ لذلك وبمنتهى الشهامة، لبث في مكانه ينتظر خافتًا أنفاسه، في حين تسارعت أنفاسهما دون تأخير، مرت الدقائق وتمنى إيبو بداخله ألا تكون قدرات الرجل خارقة، حتى لا يلبث في موضعه هذا طوال الليل، فلو شعر بالملل سيتخلى عن شهامته السابقة وسيجهز عليهما في هذا الوضع، لكنه غالب مله ومكث ينتظر، بعد حوالي النصف ساعة، بدا أنهما قد وصلا لشبقهما وانتهى الأمر، ارتدت الفتاة ملابسها وامتدت يدها لتأخذ المال الذي وضعه لها على الفراش، بينما قال لها شريكها باسترخاء: "كنت أنوي أن أخصم من عمولتك بسبب التأخير، لكني

لن أفعل لأني راضٍ عما فعلتيه الليلة، ابتسمت بثقة وأرسلت له قبلة وداع، ثم غادرت الغرفة، ليسمع إيبو صوت حذائها ذي الكعب العالي وهو يهبط على الدرج، بعدها سمع صوت إغلاق الباب الرئيسي.

بعد أن اطمئن أنه الآن وحيدًا، قام من مخبئه ببطء واقترب من الفراش حيث كان الرجل راقدًا على بطنه عارى الجذع، سدد إيبو مسدسه ناحية الرأس الملقاة بخمول على الوسادة، أحس الرجل بأنه ليس وحيدًا، استدار بوجهه ليفاجأ بالفوهة الباردة المصوبة إلى رأسه، وقبل أن ينطق.. ضغط إيبو على الزناد!

* * *

بدأ الجميع في التراجع ببطء، بينما كان الصوت الرهيب يتعالى بوتيرة تكاد توقف القلوب، عندما حدث المشهد الذي اعتدنا رؤيته في أفلام الرعب، تعثر أحدهم لينتبه الوحش!

كانت تقية من تعثرت، ليتوقف صوت القضم وليبدأ الجحيم!

ركض حثيث ليرتفع الأدرينالين إلى نسب خرافية في الأجساد، جثث ممزقة متناثرة في الأرجاء، كائنات سوداء بأنياب حادة قاطعة يسيل لعابها

بعدما رأت فرائسها الحية، غريزة البقاء تعلن عن نفسها فلا مكان الآن للحديث عن الرغبة في الموت، وبجوارها غريزة الجوع، الثمار مازالت تتلألأ في تلك الغابة، التي تبدو كالجنة من الخارج، لكن الحقيقة أنها تحوي الجحيم ذاته، لن نستطيع أن نقدر وقت المطاردة، فدقائق الخوف تلك استطالت لتصبح ساعات، أخيرًا بدت لهم غابة من السيقان تشبه سيقان الخيزران، لكنها مشعة بوهج أخضر، غابة كاملة يتوسطها ممر بالكاد يتسع لاثنين، لم يكن ثمة وقت للتفكير.. هل سندخل أم لا؟ فتتابع دخولهم واحد تلو الآخر في الممر، ومن شدة ذعرهم لم يتوقفوا عن الركض ولم ينتبهوا أن الوحوش قد وقفت تزمجر خارج تلك الغابة، لكن آسيا التي كانت في المؤخرة هي من لاحظت، فتوقفت!

نظرت إلى المقدمة فوجدتهم لا يلوون على شيء إلا الهرب، نظرت إلى المؤخرة لتجد أن الوحوش عاجزة عن اختراق الغابة، فبدأوا ينسحبون عدا واحد منهم، وقف على الحافة ينظر لها وهو يزمجر، هنا بدأت غريزة البقاء تخفت بعد أن خف الذعر، وبدأت الرغبة القديمة في الرحيل تطل من العينين، موت بلا ألم، لم لا؟!

ببطء استدارت لتتخلف عن باقي المجموعة، ثم بدأت في التحرك ناحية المسخ الذي عرف أنه لم يخسر كل القطيع الهارب!

بعد أن توقفوا أخيرًا عن الركض، قال إيبو وهو يلهث: "لقد افترسوا تشاي لي."

قال رامو وهو يتفقد الباقين بأنفاس متسارعة: "نعم.. لقد فقدناه هناك قبل أن ندخل هنا"، ثم توقف فجأة ليقول: "أين آسيا؟"!

قالت تقية: "لقد كانت معنا منذ دقائق."!

هنا لم يفكر رامو للحظة بل ركض عائدًا، أتاه صوت بلال من الخلف: "أيها المجنون، ربما تكون ميتة ستقتل نفسك."!

لم يأتهم رد منه، فقد واصل ركضه عائدًا للوجهة التي كانوا يهربون منها وهو يقول: "المجنونة ستفسد كل شيء."!

في تلك اللحظات، كانت آسيا مازالت واقفة تغالب خوفها، محدقة في هذا الوجه البشع أمامها وهي تفكر بصوت مسموع.. (نعم سيكون

موتًا رحيمًا، أنا لم أسمع أي صراخ بشري هنا). حزمت أمرها وامتدت يدها المرتعشة لتفرغ أذنيها من الأوراق، عندما امتدت يد رامو لتمسك يدها بقوة وهو يقول صارخًا: "ما الذي تفعلينه؟."!

قالت بغضب وهي تدفعه: "لا شأن لك بي."

لكنه لم يأبه لثورة غضبها بل اقتادها بالقوة للداخل، فلم تقو على التملص من ذراعيه، أو أن الخوف قد تيقظ في قلبها مرة أخرى، فعاودت غريزة البقاء عملها بآلية، بعدها تحركا معا بخطوات مسرعة، بعيدًا عن المسخ الذي أصدر زمجرة غضب لضياع وجبته.

بعد مسيرتهما السريعة وصلا إلى الباقين، ليخرج الجميع بعدها من غابة الخيزران المتوهجة إلى حافة جرف يفصلهم عن أرض أخرى ويربط بينهما جسر خشبي.. بدأوا يعبرونه الواحد تلو الآخر.. ناحية المجهول.

* * *

أمام ماكينة الصراف الآلي وقف منتظرًا، ليعرف إلام وصل رصيده البنكي بعد أن أدخل بطاقته البنكية الصفراء إليها، لحظات مرت ليظهر

رصيده الذي قفز بضعة آلاف من الدولارات، بفضل تلك الرأس التي اقتنصها في غرفة النوم إياها، قام بسحب مبلغ بسيط ثم أخرج البطاقة، ليتجه بعدها في خطوات متأنية ناحية أحد المطاعم ذات الطابع الأمريكي، والموجودة بكثرة في هذا الشارع الحيوي من مدينة مومباسا الواقعة على ساحل المحيط الهندي. ابتاع غدائه الأمريكي كما يفضل، وبدلًا من أن يتناوله في باحة المطعم أخذه وتوجه به ناحية الساحل مستقلًا سيارة تاكسي، بعد أن وصل لوجهته، ترجل من السيارة ثم خلع حذاءيه ليخطو ناحية المحيط بخطوات تنغرس في الرمال، سار قليلًا بمحاذاة مستنقعات نباتات المنجروف، بسيقانها الملتوية كالثعابين أسفل أوراقها الخضراء، والتي تملأ الساحل، ثم قصد ظل شجرة من أشجار جوز الهند ليجلس فيه، هنا، حيث لا بشر تقريبا، مكانه المفضل، لا يتخيل الكثير ممن يعرفونه أن هذا الجسد الضخم مفتول العضلات، ممن يذهبون لتأمل الأمواج وللتوحد مع الطبيعة، بالواقع أنه بعد أن انتقل من نيروبى العاصمة، أصبح لا يملك الكثير من المعارف ولا يملك أيًا

من الأصدقاء، لذلك تسوقه قدماه إلى هنا كلما شعر بالغربة والحنين لإيبو القديم.

هو يتذكر جيدًا بدء انحراف مسار حياته، يتذكر المبلغ الكبير الذي كان يحتاجه لينقذ تلك الروح الصغيرة التي كانت تضيء حياته في يوم من الأيام، يتذكر كم الأبواب التي أُغلقت في وجهه من أجل مبلغ يجمعه اليوم من عمليتين لعملائه لا أكثر، بعدما صعدت الروح الصغيرة إلى بارئها في ذلك اليوم بالمستشفى، رأى انكسار زوجته إلى ملايين الشظايا التي أدمت روحه، وأعلمته بمدى عجز هذا الجسد الذي يبدو كجسد المصارعين، والذي كان يظن أنه جدار حام لعائلته، لكنه لم يفعل أي شيء ليخفف حتى سكرات الموت عن صغيرته ذات الست سنوات.. صغيرته يابا!

يتذكر جيدا اليوم الذي حملت فيه زوجته حقيبتها وقررت الرحيل، ليس غضبًا ولكن عندما ضاعت الصغيرة، تلك الحياة المشتركة التي خلقاها سويًا في أحد الليالي تحت مشيئة القدير، لم يتحملا البقاء معا لأنها كلما نظرت في وجهه ونظر هو في وجهها لا يريا غير الصغيرة التي

رحلت، بعدها رحل هو بجسده الضخم إلى مومباسا، وعرف فيما بعد كيف يُكسبه جسده الرزق، في البدء كانوا يطلبونه من أجل تأديب أو ضرب أحدهم مقابل مبلغ معقول من المال، ثم بعدها بدأوا يلجؤون إليه عندما يريدون التخلص من خصم أو عدو.. عندما يريدون القتل!

الآن بعد أربعة أعوام من فراق الصغيرة، أصبح هو إيبو ماساي آلة القتل التي لا تخطئ ولا ترحم، والذي تستطيع الوصول إليه عن طريق الديب ويب.. شبكة الإنترنت الخاصة بتجارة المخدرات والقتل وبيع البشر والأعضاء وعبدة الشيطان وطقوسهم الرهيبة! من يتخيل أن هذا القاتل المأجور المحترف، يأتي ليجلس وحيدًا في رحاب المحيط وأشجار جوز الهند والبلاذر ليجتر الذكريات!

أنهى وجبته ثم أخذ يعبث في جيوبه حتى أخرج المدلاة الخيطية التي اخترقت ثلاثة أسنان بشرية، واحد من الثلاثة كان ضرسه الذي خلعه عند الطبيب في ذلك اليوم، أما الآخرين كانا سنين لبنيين تساقطا من الصغيرة.. إنها أسنان يابا ابنته!

* * *

عندما رأوا الأرض الأولى برمالها الزرقاء وثمارها الكريستالية كان أول ما تبادر إلى ذهنهم أنها الجنة، لكن عندما غادروا الجسر الخشبي وبدأوا يتوغلون إلى تلك الأرض الجديدة كانوا يفكرون في النقيض تماما، تربة قفر، لا يجد العشب فيها موطنًا للعيش، تتناثر أشجارها على مسافات متباعدة، جذوعها عريضة بنية، أوراقها مجعدة خشنة الملمس، بينما تطل ثمارها التي تشبه ثمار الطماطم ولكنها غير متجانسة لزجة القوام، الجو ترابي يغلب عليه اللون الأحمر، خانق مثير للسعال ودرجات الحرارة كانت أعلى نسبيًا، الأرض الجديدة مثيرة للوجل والتشاؤم، لكنهم بلغوا مبلغًا من التعب لا يستهان به بعد كل هذا الركض والذعر الذي جعل مفاصلهم كمفاصل الماريونيت .

جلسوا جميعا على الأرض في صمت لدقائق غير معدودة، ومشهد المسوخ مازال حاضرًا في أذهان الجميع، بعد برهة تكلم بلال بإنهاك: "لقد فقدنا السيد تشاي لي، أنا رأيته بين براثن ذلك الوحش، هذا المشهد لن يغيب عن عقلي بسهولة."

قالت آسيا وهي تتحاشى النظر لرامو: "ما لا تعلمه إنه أكثرنا حظا، إنه لم يتألم ذرة، أن نبقى أحياء لوقت إضافي ليس ميزة، فالأهوال قادمة لا محالة."

لم يرد رامو عليها، بل قرر أن يتحاشاها أيضا تجنبا للدخول في مشادة هم في غنى عنها، قال إيبو: "آسيا على حق، يبدو أننا نكفر ذنوبنا هنا."!

غيم الصمت الكئيب المستسلم لهذا القدر الأسود، تلك المجموعة هي إثبات واقعي للطبيعة البشرية المليئة بمواطن الخير والشر، قد يبدو واحد مثل إيبو مثلا، بتاريخه الإجرامي وحشًا جُرد من الإنسانية في نظر من حاكموه، لكنه عندما ينظر لنفسه في المرآة لا يرى إلا شخصًا انحرف طريقه رغما عنه، هناك بداخله بقايا ضمير إنساني حي وحقيقي، ولذلك نجد أعتى المجرمين شرًا لا ينظرون إلى أنفسهم بقسوة أبدًا، بل دائما ما يبررون لأنفسهم تلك الأفعال وكلها تبريرات منطقية جدًا لا تقبل الجدال أمام ضمائرهم.

نهض ميلان من مكانه ليتوجه إلى أقرب شجرة، وشرع بقطف بعض الثمار مريبة الشكل ثم بدأ يتذوقها، بينما انعقد حاجباه وهو يلوكها، سألته تقية: "مذاقها سيء؟."

قال وهو مستمر بالمضغ: "ليس سيئًا ولكنه غريب، يشبه طعم اللحوم إلى حد ما."!

استمر ميلان في تناول الثمار بينما بدأ الباقون يحذوون حذوه، وإن غلبهم شعور بالغرابة وشيء من الاشمئزاز من مذاقها الغريب، وبينما هم منهمكين في المضغ، تناهى إلى مسامعهم صوت الأنين!

توقفوا بحركة آلية وتجمدوا في أماكنهم، لقد نفدت طاقتهم فلن يقووا على الركض الآن، ببطء تقاربوا واتجهوا ناحية الصوت، عندها استعادوا ضربات قلوبهم المتوازنة عندما رأوا مصدره، فلم يكن إلا حيوانًا أبيض صغيرًا يشبه الأرنب، ملتصق بجذع أحد الأشجار ويُصدر عواءً مريرًا متألمًا، تحركت الشفقة في قلوبهم فاتجه إيبو ناحيته ليرى ماذا هناك، انحنى متفحصًا إياه، وعندما رأى سبب العواء، انفلتت شهقة رغمًا عنه وهو يقول: "رحمتك أيها القدير، ما هذا؟."!

اجتمعوا حوله ممعنين النظر في مبعث الألم لهذا الصغير، ليجدوا مشهدًا مؤلمًا ومقززًا، فالجزء الملتصق بالشجرة متآكل تمامًا، كأن الشجرة

التهمته!، حيث انغرست في ظهره قواطع بيضاء تشبه الأنياب، إنها عملية هضم خارجي وقتل بالبطىء!

سارع إيبو وأحضر رمحه الخشبي، وبخبرة اعتادها أجهز على الحيوان المسكين بضربة واحدة ليتوقف العواء، وقفوا ينظرون إلى بعضهم وقد بدأت أمعاؤهم تتقلص، قال إيبو باشمئزاز: "هذه الأشجار تتغذى على اللحم الحي، هذا هو سر طعم ثمارها الغريب."!

شعور بالغثيان غمر الجميع، في حين ابتعدت أونغ لتُفرغ ما في جوفها على الأرض!

* * *

أوقف دراجته بالقرب من ذلك البرج السكني، ثم ترجَّل حاملًا علبتي بيتزا على راحة يده، ودلف من بوابة البرج ومنها إلى المصعد، لتسليم طلبيته إلى إحدى الزبائن، ضغط بإصبعه على الزر رقم عشرة، ليبدأ المصعد في التحرك لوجهته إلى الأعلى، في منتصف الرحلة، يتوقف المصعد، ينزلق الباب، ليدخل منه صاحب هذا الجسد العملاق بثقة، ينتظر العامل مواصلة الرحلة، يعاود المصعد شق طريقه إلى الأعلى حتى

يصل وجهته، يُفتح الباب ليخرج منه شخص واحد فقط!، شخص واحد مفتول البنية، والذي يتجه ببطء إلى ذلك الركن من الطابق، حاملًا العامل كالعصفورعلى كتفه، ليكومه فيه ثم يحمل طلبيته إلى المرأة التي تنتظر!

جرس الباب يدق، تتجه هي بعودها الطويل الفائر لترى من الطارق، يأتيها الصوت القوي: "البيتزا سيدتي."

تفتح الباب، تمد يدها وتأخذ حمولتها، ثم تتركه لتُحضر المال تاركة إياه على الباب المفتوح، تدخل الغرفة، تعبث في حقيبتها من أجل المال، تهم بالاستدارة وقبل أن تُكملها للباب المفتوح، تسقط!

تسقط بنافورة دماء انبجست من عنقها، فعلها إيبو بسرعة وثقة، فهو لا يحب أن يطيل لحظات الاحتضار، كان جسد المرأة يترجرج على الأرض في لحظات خروج الروح، فأجهز على قلبها بضربة سكين واحدة لتهمد الحركة بعدها تمامًا، هو لا يحب استخدام السكين، لكن العميل الذي تواصل معه من أجل المهمة طلب منه ذلك، كان يريد موتًا بطيئًا ومؤلمًا، لكن إيبو أجهز عليها بسرعة، وبعد أن تأكد أنها فارقت

هذا العالم، سدد طعنات متوالية هنا وهناك، طعنات لن تؤلمها بعد الآن، لكنها ستُرضي رغبة عميله الماسوشية، بعد أن انتهى تبقى له شيء واحد، أخرج هاتفه الحديث من جيب بنطاله الخلفي والتقط أكثر من صورة لها، نزولًا أيضا على رغبة الزبون.

غادر إيبو غير شاعر بشيء، هو مجرد عمل لا أكثر، عمل يتقاضى عنه كثيرًا من الأموال التي قتلت ابنته فيما سبق، يابا الصغيرة، التي لا يعرف إيبو في تلك اللحظات، أن مدلاة أسنانها اللبنية قد تركت جيبه عندما أخرج هاتفه منه، لترقد بالداخل، بجوار الجثة الممزقة!

* * *

لا يعرفون كم من الوقت مر عليهم في مثل هذا المكان، لكن أرجلهم لم تطاوعهم على المزيد من التوغل داخل تلك الأرض، مخافة من مصادفة وحوش أخرى، هنا لا خطر في الأرجاء، فقط الجو الحار المترب الخانق، وتلك الأشجار التي تتغذى على فرائسها حية، يمر بهم من وقت لآخر بعض الحيوانات الصغيرة التي تشبه القوارض، ومن وقت لآخر يستمعون إلى أنينها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة تحت براثن

الأشجار، لذلك حرصوا على أن يبتعدوا بمجلسهم وبمنامهم مسافة كافية عنها، كانوا يتناولون الثمار ويتناوبون في تقيؤها، لم تكن سيئة المذاق لهذه الدرجة، لكن صوت الأنين كان يرج جهازهم الهضمي رجًا، كأنهم يأكلون من تلك القوارض وهي على قيد الحياة، لذلك لم يفارقهم شعور الغثيان المقبض.

عرق، غثيان، اختناق، كان ملخص وضعهم في تلك الأرض لكن أحدًا منهم لم يقترح أبدا المغادرة، فتلك الأرض المقبضة، أهون من الرعب الذي لاقوه في الأرض ذات الثمار الكريستالية، بجوار نبع مياه صغير، جلست النسوة الثلاثة يمسحن على وجوهن وشعورهن بالماء، لتخفيف وطأة الحر الذي يتزايد يومًا بعد يوم.

كان يبدو أن أونغ أكثرهم إرهاقًا فلم تتوقف عن إفراغ معدتها مذ وطأت قدميها تلك الأرض، رأتها تقية تقوم مهرولة للداخل لتستند بركبتيها على الأرض، مفرغة ما في جوفها عليها، وجهت حديثها لآسيا قائلة: "أونغ لن تصمد كثيرا، من الواضح أن جسدها يرفض ذلك الطعام."

قالت آسيا: "من الأفضل أن نتحرك، أنا أيضًا لم أعد أتحمل هذا الحر، ما الذي يبقينا هنا على أي حال؟ ."

قالت تقية بابتسامة لئيمة: "ننتظر إشارة القائد."

قالت آسيا مضيقة ما بين حاجبيها: "أي قائد؟."

-رامو! ألم تلاحظي أنه من يوجهنا.

صمتت آسيا وأشاحت بعينيها بعيدًا، فأردفت تقية قائلة بنفس الابتسامة: "ألم تلاحظى أيضًا اهتمامه الزائد بكِ؟."!

قالت آسيا بغضب: "هل ترين هذا المكان تقية؟، إننا في الجحيم يا عزيزتي، نحن مجرد أرواح هائمة تنال نصيبها من العذاب، لسنا في رحلة في الخلاء، نقيم علاقات صداقة ورومانسية، لذا أذيلى هذه الابتسامة المستفزة عن وجهك، أرجوكِ."!

أنهت كلماتها ثم نهضت لتغادر المكان، بينما تابعتها تقية بعينين ثاقبتين وابتسامة ساخرة، ثم غمغمت قائلة: "لقد رأيته عزيزتي، ذلك البريق في عينيكِ أعرفه جيدا، فهو سبب وجودي هنا."!

أغمضت عينيها وقد تراءى لها مشهد مما مضى، قطرات حمراء تنز من ملاءة الفراش البيضاء !

جالس يلهث بينما يعتصره الحر عصرًا، وقد تحولت بشرته البيضاء إلى لون وردي يقترب من لون شعره الأحمر، مر به إيبو، فرمقه بنظرة احتقار مغمغما بصوت مسموع: "الدجاجة البيضاء سُلقت في هذا الحر."!

نظر له ميلان بكراهية ولم يرد بصوت مسموع بل كان يفكر.. (بالطبع هو أكثرنا تحملًا لذلك الحر، وإلا ما امتلك لون الطين هذا!)، اقترب إيبو من أحد الأشجار وقطف بعض من الثمار وتمشى عائدا، ثم دون سابق إنذار، وجد نفسه على الأرض إثر تعثره في شيء ما، نهض بسرعة ونظر وراءه، ليجد ميلان جالسًا وعلى وجهه ابتسامة صفراء، بدت متوحشة على وجهه الوردي هذا، اهتزت الأرض تحت دبيب إيبو الغاضب، الذي اقترب منه ورفعه بقبضة واحدة وهو يقول: "يبدو أنك متعجل لموتك أيها الأحمر."

لم تفارق الابتسامة شفتي ميلان، مما زاد من غليان إيبو فألقاه أرضًا ليصطدم بإحدى الصخور، غادر بعدها إيبو المكان، بينما ظل ميلان في مكانه على الأرض ممسكًا بكتفه وهو يتأوه من الألم، ثم غمغم بحنق قائلًا: "بل عقلك هو عقل الدجاجة إيبو، لا تعرف ما الذي يستطيع فعله ميلان"، قالها وهو يرمق حيوانين يتقاتلان بجوار أحد الأشجار، ثم فجأة انطلق صوت الأنين!

* * *

نقرات سريعة بسبابته السوداء على سطح حاسبه المحمول، جعلته يتنقل في أرجاء الموقع الإلكتروني الذي يدير عمله من خلاله، بابتسامة رضا، كان يرمق صفحته الخاصة التي وجد عليها العديد من الرسائل من الزبائن.. الزبائن المتلهفة للقتل!

يبدو أن اسمه قد سطع عاليا بين القتلة المأجورين، فهو قد أدى جميع مهامه دون خطأ واحد وبحرفية عالية، من الغريب أنه كان ينقل نقراته بين هذا الموقع الإجرامي في الديب ويب، وموقع آخر للتواصل الاجتماعى ليتابع حسابه المزيف عليه، نقرة تنقله لعالم أسود بالكامل

ونقره تنقله إلى العالم الطبيعي المليء بالألوان، وعندما يطالع صفحته التي تطل على العالم الطبيعي يدرك إلى أي مدى نقائه، حتى لو بدا للمعظم مدى سوداويته، فكيف يظنون إذا ألقوا نظرة على تلك العوالم التي خفيت عنهم؟!، كم يحسدهم إيبو على هذا الجهل الذي لا يعرفون قيمته، بالطبع الجميع يسمع عن الجرائم البشعة في هذا العالم، لكنهم لا يتخيلون إلى أي مدى يصل الأمر.

نقرة أخرى تنقله إلى ذلك العالم الأسود، هنالك العديد من المهام المنتظرة تراسل مع أصحابها لأخذ جميع التفاصيل والبدء في التنفيذ، أغلق حاسبه ورشف كوب الجعة أمامه، ثم أتته رغبة في تدخين سجائره، فقام على إثره ليحضر علبة من الداخل، تفقد جيب بنطاله حتى تحسس البروز الذي يأخذ شكلها، وعندما أخرجها تذكر شيئًا آخر، شيء تعود على رؤيته.. في الدرج، على المائدة، في جيب بنطاله، شيء لا يفارقه، مثله مثل محفظته وعلبة سجائره، شيء لم يره منذ أيام! دق النذير في عقله فألقى سجائره على الفراش وشرع يبحث هنا وهناك، في الأدراج.. لا، في الدولاب.. لا، أسفل الفراش.. لا، في أواني

المائدة..لا، أسفل الأثاث.. لا. توقف، ذهنه ينبض، يتشمم الأجواء ككلب حراسة يقظ، يتذكر، الـشاطئ وجيب البنطال، يسرع إلى البنطال المعلق، يفتش جيدًا.. لا شيء. فقط ذهنه يركب له صورة واحدة، يده تخرج الهاتف من الجيب، وفي نفس الوقت تسقط المدلاة، في شقة تلك المرأة التي نحر عنقها، ليسقط الدليل الذي سيذل بقدمه في الهاوية!

بسرعة يُحضر الحقيبة الثقيلة، يلملم كل ما يقدر على جمعه من متعلقاته، وفي نفس اللحظات تلتقط أذناه صوت الركلات على باب شقته!

* * *

تقوست على الأرض في وضع جنيني، بالرغم من أن هذا الوضع يجلب المزيد من الحر هي في غنى عنه، لكنه الليل بظلمته ووحشته، يأتي بطنين نحلة الذكريات المعتاد قبل النوم، هي بهذا الوضع، كالسلحفاة التي تسارع إلى قوقعتها الصدفية، هروبا من العالم، وفي تلك الأرض الكابوسية ضوء القمر ينفذ بالكاد، عبر تلك الأشجار ملتهبة الأوراق فتجد الضوء منعكسًا بظلال حمراء كابوسية، تغمض عينيها محاولة

استدعاء منقذها الوحيد من ذلك الطنين.. النوم بسلطانه العتيد، حيث يحمل روحها إلى تلك الأرض البعيدة ثم يعود بها في الصباح ولكم تمنت ألا يعود بها أبدًا، حمل لها الطنين صورة من الماضي جعل دمعة حارة تنساب بسخونة على جانب وجهها، صورة طفل نائم في غرفة مظلمة، وبجانب فراشه تقف تلك المرأة تنظر إليه بعينين لا تريان، ممسكة بوسادة بين يديها، أغمضت عينيها بشدة وازداد لهاثها وتوسلها للمنقذ الجبار بأن يأتي ليريحها، لكن شيئًا آخر انتشلها من الطنين.

استدارت ثم اعتدلت في رقدتها، كان الجمع نائمًا عدا إيبو الذي رأته منحنيًا على ميلان، ولم تدر ما الذي يفعله بالضبط، بعدها اعتدل لتلتقي عيناه مع عيني آسيا المتسائلتين، لكنه تجاهلها وواصل مشيه مبتعدًا، حتى تكوم في ركن لينام هو الآخر موليًا إياها ظهره، بعدها عادت هي الأخرى إلى وضعها الجنيني ليأتيها النوم بعد عناد طويل.

استيقظت على صوت صراخ وشجار، قامت من رقدتها بخطوات متسائلة لتجد المشهد التالي أمامها.. ميلان ملطخ بالكامل بمادة سوداء قذرة، بينما كان يصرخ ويندد ويتوعد، بعدها بدأ القتال، إيبو وميلان

يتقاتلان، لكنها بالطبع كانت معركة ميلان الخاسرة الذي بدا كالفأر في مواجهة وحش أسود وكاسر، وكاد أن يفتك به إيبو بالفعل لولا تدخل بلال ورامو اللذين أبعدا إيبو بالكاد عن المكان، بينما وقفت النسوة يرمقن ميلان الذليل وهو متكوم على الأرض يئن في ألم، ليلة ذلك الشجار، غاب الجمع في نوم عميق عدا اثنين!

في تلك المساحة الخالية بين الأشجار، وقف ميلان منتظرًا، بجسد مضعضع وجريح لكنه ثابت الجنان إلى حد مريب، بعدها بخطوات بطيئة بدأ يتقدم شبح أسود عملاق ناحيته، وقف الرجلان متواجهان والأعين يطق منها الشرر والكراهية، لحظات من الصمت المترقب، بعدها تكلم إيبو قائلًا: "الواقع أنا أحييك على شجاعتك ميلان، أنت مصر بشكل غريب على مواصلة القتال بالرغم من أنك بالكاد تستطيع الوقوف."

قال ميلان ببرود: "لن أدع زنجيًا يضع لي كلمة النهاية."

زمجر إيبو بغضب، ودون سابق إنذار اندفع ناحيته بكامل عنفوانه، وفي أقل من اللحظة انسلت ميلان من طريق تلك الدبابة البشرية

لتصطدم بجذع الشجرة، تحت أعين ميلان المبتسمة بظفر، والتي رأت هذا المشهد فيما سبق بين الجرذين المتناحرين ليعطياه الفكرة، خرجت مئات القواطع البيضاء من الجذع، لتخترق جسد إيبو الذي أطلق صرخة جلجلت الأجواء!

أرض ثالثة

خلايا من الجحيم!

نهر الدماء!

بلال إمران

في البداية كان هناك ذلك المبدأ، مبدأ ثابت وقوي وهو نصرة الدين والزود عنه، الدين الذي بدأ غريبًا وها هو يعود غريبًا كما قال رسولنا الأكرم، لا يعرف كيف تطور وتغير هذا اليقين، ليأخذ أشكالًا أخرى مغايرة، تتخذ الدماء وسيلة لتحقيق مصالح أبعد وأقذر، لا يعرف متى تحول هذا الشاب المفعم بحب الله والرسول، إلى مجرد ترس في آلة كبيرة تدور، اسمها السياسة!

تدفقت الأشعة الذهبية الوهاجة من القرص المشتعل في السماء، حاملة الضوء ومزيد من درجات الحرارة التي جعلت جسد مالهوترا الجندي الهندي يتصبب عرقًا، بعدها سارع إلى إحضار زجاجة مياه

مثلجة، ليُلصقها بوجهه كعادته العتيدة لتخفيف الحر، مالهوترا هو واحد من الجنود التابعين لحرس الحدود في الجيش الهندي، أما ذلك المكان فهو أحد المعابر بين الهند وباكستان في منطقة بورا، التابعة لإقليم كشمير المتنازع عليه بين الدولتين، الهدوء والصمت يغمران الأجواء الصحراوية عند المعبر، خاصة في مثل هذا الوقت من اليوم.. بعد الظهيرة، في تلك الفترة كانت الأجواء مستقرة في الإقليم لكنه مثل الحال الذي لا يدوم، فمن وقت لآخر تحدث بعض المناوشات المسلحة بين الجنود على الطرفين الهندي والباكستاني، والتي تسفر عن سقوط القتلى والمصابين.

بعد أن أحضر زجاجة المياه، سار عائدًا إلى موضعه على مهل، ناظر إلى الأرض ومتأمل بقع الحشائش المتناثرة هنا وهناك، عندها لاحظ شيئًا مرميًا على الأرض، له أبعاد صندوق صغير، في نفس اللحظة التي التقطت فيها أذنيه هذا الصوت الرتيب الذي يشبه دقات الساعة، اقترب ليصبح على بعد إنش منه، ثم ركع ليمعن النظر أكثر، تسارع صوت المرقاب مع دقات قلب مالهوترا، الذي اعتدل في أقل من لحظة ناظرًا

لزملائه، وقبل أن يصرخ محذرًا، كان المؤقت قد وصل لنقطة الصفر، لتتناثر أشلاؤه في المعبر الذي دوى فيه صوت انفجار مروع!

بعد أقل من ساعتين، كانت الأقمار الصناعية تنقل أخبار الهجوم الغادر على حرس الحدود في إربا، والذي راح ضحيته خمسة قتلى وأكثر من عشرة مصابين، لتندد الهند بتلك الجريمة البشعة، ملقية اتهاماتها على الجارة باكستان، بعدها أعلنت جماعة سيف الفجر الباكستانية مسؤوليتها عن الهجوم، لتتابع بعدها التصريحات المعادية بين البلدين.

أمام شاشة التلفاز، جلس بلال متابعًا للخبر الذي تصدر الأخبار على الشاشات الباكستانية والهندية، وبابتسامة واثقة تلقى كلمات التهنئة من أمير الجماعة عبر بريده الإلكتروني، على تمام المهمة على الحدود على أكمل وجه، ثم أخذ يملأ عينيه بمشاهد القتلى والجرحى الذي خلفهم الانفجار وراءه.

ترعرع بلال في إحدى بلدات لاهور الصغيرة، وبعد أن تخرج من كلية الهندسة سلك طريقًا مختلفًا تمامًا عن دراسته، كان شابًا متدينًا، تشغله قضية دينه إلى أقصى حد، وفي وطنه كانت طبيعته المتدينة تلك

أرضًا خصبة لتُزرع فيها أي جماعة جهادية بذورها، إنها باكستان، من أكثر الدول التي ضربتها هجمات الجماعات المتشددة، والتي تلقت أيضا العديد من الاتهامات بأنها راعية للإرهاب والجماعات الإسلامية التكفيرية، ولنوضح تلك القضية المتشابكة، سنبدأ من البداية.. بعد انفصال باكستان الإسلامية عن الهند، لتعرض المسلمين للاضطهادات العرقية، بدأت العداوة التاريخية بين البلدين، باكستان الإسلامية دولة تاريخها قائم على هويتها الدينية الإسلامية، وكالعادة تتدخل السياسة لتزيد الأمور عتمة وتعقيدًا، في البداية تتحالف باكستان مع أمريكا لترميم جراح الانفصال عن الهند، كما طمح العسكريون الباكستانيون إلى ضم أفغانستان إلى جبهتهم ضد الهند، ومن هنا أتى دعم جيش باكستان للجماعات الجهادية الأفغانية كطالبان وشبكة حقانى، هذا بالإضافة إلى جماعات الجهاد الباكستانية كعسكر جنجوى وعسكر طيبة وجيش محمد وجماعة الأحرار التابعة لطالبان باكستان، لكن منذ أعلنت الولايات المتحدة الحرب على الإرهاب، وضعت باكستان بين أزمتين.. إما أن تتخلى عن دعم الولايات المتحدة وتخسر أفغانستان كحليفة أو

العكس، كان هدف الجماعات الجهادية في البداية تحرير أفغانستان من الغزو الغربي والدفاع عن المسلمين في كشمير ضد الاضطهاد، لكن بعد تداخل المصالح السياسية وتمويل المخابرات لبعض من تلك الجماعات، أصبح السلاح موجهًا لكل ما هو غير إسلامي، مثل الهجمات على المسيحيين من قِبل الأحرار، والهجمات على الشيعة من قبل جماعة عسكر جنجوى، هكذا بدأت حلقة إراقة الدماء التي لم ولن تنتهي، أما عن جماعة سيف الفجر فقد بدأت كخلية إرهابية تجند الشباب المتحمس للقضية، لتنفيذ هجماتها في أرجاء باكستان، بعد انضمامه إلى الخلية ولقدراته التي نالت التقدير من أمير الجماعة، ارتقى بلال من منفذ عمليات إلى مخطط لها إلى أن أصبح نائب الأمير، الذي يطمح لأن تصير تلك الخلية الوليدة يومًا مثل طالبان أو القاعدة.

في البداية كان هناك ذلك المبدأ، مبدأ ثابت وقوي وهو نصرة الدين والزود عنه، الدين الذي بدأ غريبًا وها هو يعود غريبًا كما قال رسولنا الأكرم، لا يعرف كيف تطور وتغير هذا اليقين، ليأخذ أشكالًا أخرى مغايرة، تتخذ الدماء وسيلة لتحقيق مصالح أبعد وأقذر، لا يعرف متى

تحول هذا الشاب المفعم بحب الله والرسول، إلى مجرد ترس في آلة كبيرة تدور.. اسمها السياسة!

وهكذا واصل بلال دورانه في تلك الآلة، وبالرغم من الأشلاء والدماء التي تطالعها عيناه الآن عبر الشاشات، لم يعاود عقله التفكير فيما وصل إليه البناء الذي بناه فوق أساس الشاب بلال المتدين التقي، الذي دون أن يدري طمره هناك تحت التراب .

* * *

لأول مرة مذ وطأت أقدامهم تلك الأرض، يسمعون أنينًا بشريًا، هناك في تلك المساحة الفارغة بين الأشجار، وقفوا في دائرة غير مكتملة يرقبون إيبو وروحه تستنفذ قطرة قطرة من جسده، بينما لم يستطع أى منهم الاقتراب إنشا لمساعدته، حتى ميلان تراجع من هول مشهد العملاق الأسود وهو ملتصق بالشجرة، وعندما لم يتحمل أكثر أدار ظهره للمجموعة مغادرًا، عندها استوقفه رامو بحزم قائلًا: "لن تغادر قبل أن تنهي ما فعلته"، ثم استدرك قائلًا: "أصبح وجودك خطرًا علينا، نستطيع أن نقتلك هنا والآن."

استدار ميلان قائلًا بنبرة موشكة على البكاء: "لقد كنت أدافع عن نفسي، ألم تروا ما فعله بي؟".

تحرك بلال ليحضر أحد الرماح المسننة، ثم أخذه وتوجه به ناحية ميلان ووضعه في يده وقال: "افعلها الآن."!

ارتعشت يدا ميلان المطبقة على الرمح، انسحب الآخرون واحدا تلو الآخر من المكان، مرت دقائق ثم تعالى صوت اختراق الرمح للحم، ثم توقف الأنين، وقفوا جميعًا منتظرين عودته حتى رأوه قادمًا مطأطئ الرأس، تكلم رامو كعادته القيادية بهدوء: "سنغادر تلك الأرض."!

مرت ساعات من المسير، حتى فاجأتهم ندف ثلج بيضاء تتساقط بغزارة، كانت أوراق الأشجار الحمراء الخشنة متساقطة على الأرض، توقفوا جميعا عندما لاحظوا أن الأوراق تهتز!

وقبل أن ينطق أحدهم بشيء، فوجئوا بتلك الأوراق تدب فيها الحياة لتتحول إلى مئات من الطيور تُصدر أصوات حادة مثل الخفافيش، غادرت مرقدها على الأرض متجهة إلى السماء،عندها حلت نوبة من الذعر ليسارع الجميع في الركض واضعين أيديهم على وجوههم غير

مدركين إلام يقودهم الطريق، مرت دقائق، توقف الركض، اعتلت الأوراق الطائرة صفحة السماء، عم الهدوء، توقف الجمع، ليجدوا أنهم على مشارف أرض جديدة.

* * *

في إحدى مقرات الجماعة المتنقلة، عُقدت جلسة إدارة العمليات، لمناقشة تفاصيل العملية القادمة والتي أخذت رقم فجر 23، كانت الجلسة الأولى تشمل الأمير ونائبه ورجلين يتوليين القيادة المباشرة للعمليات، حيث تم وضع الخطوط العريضة ومناقشة كافة تفاصيل التنفيذ التي تندرج تحتها، كان من الواضح أنها تختلف عن كافة العمليات التي تبنتها الجماعة إلى تلك اللحظة، فالعمليات كانت موجهة للهنود على الحدود أو المسيحيين والشيعة بالداخل، أما تلك المرة فالهدف خطير وإن نجحوا في مسعاهم فستقفز الجماعة خطوات لا يستهان بها إلى الأمام، الضربة تلك المرة ستكون من نصيب الوجود الأمريكي في باكستان.

من مصادر الجماعة المعلوماتية الخاصة، عرفوا أنه ستُعقد جلسة في أحد فنادق إسلام أباد الكبرى، تشمل السفير الأمريكي ومجموعة من

الدبلوماسيين الأمريكيين والباكستانيين أيضًا، ومن حسن حظ الجماعة -أو ربما من سوء حظها!- أن هذا الفندق بالذات يستطيعون الولوج إليه بسهولة عن طريق بعض العاملين به والموثوق في ولائهم للجماعة وأميرها، الكل كان يرى أن تلك الضربة ستكون صفعة قوية في وجه الولايات والمتحالفين معها من الداخل، والأهم أنها ستغير خارطة الجماعات الجهادية بالداخل، لتقفز بسيف الفجر إلى مكان أعلى بكثير، لكن بلال أعلن عن رأيه المخالف قائلًا: "أنا أتفق أن تلك العملية لو كتب الله لها النجاح، ستغير الكثير من الأمور، لكني لا أثق أنها ستكون كلها للأفضل، العداوة موجودة مع الولايات لا شك في ذلك، لكنها بتلك العملية ستتخذ شكلًا سافرًا لا شك فيه، لا نريد أن تُفتح النيران من جبهة قوية مثل أمريكا، هذا لو ضمنا نجاح العملية، بالرغم أنه سواء نجحت أو فشلت، فإن الجماعة ستكون معرضة للخطر، حتى لو كان هناك بعض العناصر التي تدعمنا من الجيش."

تكلم الأمير قائلًا: "الطريق الذي نسير فيه هو طريق الخطر، فليس من المنطق تجنب احتمالات الخطورة وهذا عملنا أصلا.. المجازفة

والشجاعة للوصول للنتائج المرجوة، المصائر لا تتغير بسهولة يا بلال بل ندفع ثمنها من أماننا الشخصي."

تكلم أحد القائدين قائلًا: "أنا متفق مع أميرنا يا بلال، القدر ألقى إلينا بتلك الفرصة، وبالطبع لن نضيعها من أجل تجنب العواقب، فهذا هو قسمنا منذ انضمامنا للجماعة."

عاود الأمير حديثه قائلًا: "لقد تم البت في الأمر، نحن هنا لنناقش تفاصيل العملية، لأن التنفيذ هذه المرة سيكون مختلفًا."

تعلقت الأعين على وجه الأمير الذي واصل كلامه قائلًا: "سنضحي بأحد أبنائنا، لأنها ستكون عملية استشهادية."

تقدم ذلك الشاب الوسيم الأسمر ذو اللحية الخفيفة من المجلس، ليتخذ موضعه في فخر حقيقي، فهو من العمال الموثوق بهم في ذلك الفندق الراقي، وكذلك هو أيضا أحد شباب الجماعة المتحمس لبذل روحه فداء لله وللدين، هو لا يساوره أدنى شك في هذا الأمر، إنه يقين ثابت كالقدر يطل من عينيه، وإلا ما الذي يدفع شاب بالكاد عبر سن المراهقة أن يتنازل عن وجوده في تلك الحياة؟! أيوجد قوة إيمانية أكبر من

ذلك؟ -مع اختلافنا معها-. هو لا يرى أنه سيموت، بل يرى أنه سينتقل للحياة في جنة الخلد لأنه يدافع عن الله ورسوله ودينه، هكذا برمج عقله كالحاسوب، الآخرون يرونه شابًا إرهابيًا شيطانًا سيزهق الكثير من الأرواح، أما هو فيرى نفسه جنديًا من جنود الحق ينفذ عدالة الله في الأرض .

انساب الحديث المشجع المحمس للشاب، وبدأوا يتدارسون جميع التفاصيل، إلا أن بلال لم يكن ذهنه صافيًا كفاية وهو يتأمل ذلك الشاب الصغير، المؤمن إيمانا لا يتزعزع بقضيته، فقد ذكره بنفسه كثيرًا عند بداية التحاقه بالجماعة، ذلك النقاء في العينين واليقين، بالتأكيد هو يرى نفسه الآن في منزلة الشهداء والصديقين، لم يفكر كثيرًا في الأيدولوجيات السياسية، وأنه في تلك الحياة لا يوجد ميزان واحد لتقييم الأمور لنصل لحقيقتها، ولكن كل جهة لها ميزانها الذي تزن عليه أمورها، فالحق في ميزان قوم باطل في ميزان قوم آخر، هكذا تأمل بلال الصبي المتحمس الجالس أمامه، ولأول مرة منذ التحاقه بالجماعة.. يطل من عينيه الشك!

* * *

استمر هطول الندف البيضاء الرقيقة عليهم، حتى وضعوا أرجلهم على الرمال البيضاء، وبالرغم أن هذا الجو يوحي بالبرودة لدرجة التجمد، إلا أن الطقس عاد لاعتداله السابق كما الأرض الأولى، كانت الشمس ترسل أشعتها الحمراء الأخيرة عليهم، في حين تتابع سيرهم الحثيث في تلك الأرض البيضاء، حتى توقفوا تباعًا على أطراف تلك الطبقة الجليدية الشفافة. ارتمت نظراتهم جميعا على تلك الطبقة الرقيقة التي تشبه الزجاج وتمكنهم من رؤية المياه من أسفلها، جلست أونغ متكئة على ركبتيها وتلمست الجليد بيدين مرتعشتين ثم غمغمت قائلة: "إنه ليس باردًا."!

بينما دق عليه رامو برمحه بقوة مختبرًا متانته، فتلقى الضربات بصدر رحب دون أن تثير أي خدش، وقبل أن ينطق أي منهم بكلمة، تقدم رامو بخطوات وئيدة على السطح الزجاجي تحت أنظارهم المترقبة، ثم استدار مواجهًا إياهم قائلًا: "لاخوف منه، هيا تقدموا."

بتردد، خطا بلال إلى الأمام، ثم ميلان، وبعد أن تبادلن النظرات المتوجسة، تبعتهم النسوة الثلاثة، انطلقت أصوات خطواتهم على الجليد

واضحة ناعمة رتيبة، تقطع الصمت الذي يغلفهم وتؤنسهم كموسيقى تصويرية ناعمة، بينما بدأت أشعة الشمس تنسحب رويدا رويدا حتى حل الليل أخيرًا، كانت السماء مظلمة والأقمار غائبة، لكن بالرغم من ذلك، لم يكن الظلام مطبقًا على الأجواء، فالضوء تلك المرة كان قادمًا من أسفل.. من تحت أقدامهم!

* * *

تحركت العينان في المحجرين ذهابًا وإيابًا، مع حركتهم في تلك القاعة الراقية التي تنبض بالحديث والحركة، انسابت موسيقى شرقية ناعمة في المكان، تمايلت عليها أجساد الفتيات في حركات استعراضية بطيئة تتابعها الأعين لوهلات، ثم تنصرف عنها مواصلة النقاشات المحتدمة، المشهد كله يستقبله حواس الشاب الأسمر ذو اللحية الخفيفة برهافة، وهو منتصب بطريقة آلية، في تلك القاعة الراقية التي جمعت شخصيات دبلوماسية مهمة من الجانبين الأمريكي والباكستاني في ذلك الاجتماع غير الرسمى، الموسيقى بالكاد تلج إلى أذنيه، وحركات الجمع المهم تحولت إلى مشهد صُور تصويرًا بطيئا، من وقت لآخر يحمل صينيته

ليقدم المشروبات لهذا أو ذاك، ثم يعود إلى وقفته بالزي المميز للعاملين بالفندق، يتابع شفاه الجميع وهي تتحرك، لتخرج العديد والعديد من الأحاديث التي تتناول قضايا سياسية مهمة، لا يعي هو منها حرفًا ولا يهمه أن يعيها، فقضيته ووعيه الأكبر يتلخص في بضع كلمات بسيطة، لا يبذل مجهودًا في التفكير بها، فهي مسلمات بديهية .

الوضع بسيط، سيفجر نفسه بعد دقائق هنا وسط هذا الجمع الكافر، فبضع كلمات تخرج من أفواههم تتحول إلى مناقشات ثم قرارات ثم أفعال معادية، تشن هجومها على الإسلام والمسلمين ببلده وفي سائر الأمة، أليست أمريكا القوة العظمى في هذا العالم، والتي تسدى ضرباتها الواحدة تلو الأخرى لبلاد المسلمين، والمعروفة بدعمها اللامحدود للصهاينة؟

هذا هو مجمل الأمر في عقله، بالرغم من هذا الإيمان الثابت بداخله، إلا أنه في تلك الدقائق الأخيرة له في الحياة، بدأت تساوره هواجس الخوف من الموت، والأقصى من ذلك، تلك الأسئلة التي بدأت تجوب

ردهات عقله بإصرار.. هل أُزهق روحي في المكان الصحيح؟! هل أنا على حق؟ لماذا أصبح الحق ضبابيًا تلك الأيام؟!

لحظات مرت، نفض فيها كل التردد والتساؤل عن ذهنه، (يجب أن تكمل ما بدأته)، هكذا أخبره عقله ببساطة، تسارعت دقات قلبه وازدادت أنفاسه سخونة، لحظات وسيعرف الحق، لحظات وسينقشع الضباب عن كل التيه في هذه الأرض، توقف المشهد أمامه في تلك الثواني الفاصلة، أراد أن يتمتم بالشهادتين قبل أن يضغط على ذلك الشيء الذي يخفيه تحت طيات ثيابه، لكن ما استطاع لسانه أن يخرجه قبيل ذلك الانفجار الذي بعثر أشلاءه.. "ربي أتمنى أن أكون على حق."

* * *

توقفوا جميعا لينالوا قسطهم من الراحة بعد أن جنَّ عليهم الظلام، جلسوا على طبقة الجليد وأعينهم متعلقة بما أسفله ومأخوذة بهذا المشهد، كانت المياه أسفل الجليد عامرة بالأعشاب المرجانية المشعة والملونة بأبهى درجات الألوان، وقد انسابت من بينها مئات المخلوقات المائية

الصغيرة، فمنها ما يشبه الأسماك ومنها ما يشبه السلاحف والثعابين، أما ما زاد من روعة تلك اللوحة الخلابة، أن كل هذا العالم مضاء ذاتيًا !

من روعة المشهد، لم يقو أي منهم على الجلوس، بل رقدوا جميعًا في وضع النوم لتأمل تلك الجنة المائية التي أخذتهم بسحرها بعيدًا عن هذا العالم العجيب الذي أُلقوا فيه، بعد دقائق، عاد بلال إلى وضع الجلوس، ثم مد يده إلى حقيبته وفتح سحابها ليخرج واحدة من تلك الثمار التي ملأها بها، نظر إليه ميلان نظرة خاوية ثم تكلم قائلًا: "هل أحضرت ذلك اللحم النيئ معك؟"!

قال بلال بلا اكتراث: "نحن لا نضمن طعامنا في مسيرتنا هذه، وإذا كنت تريد إجابة أخرى فلقد أعجبني مذاقها، هل يضيرك هذا في شيء؟"!

أصدر ميلان بوجهه تعبيرًا دالًا على التقزز ولم يعقب بالرد، بينما تدخل رامو في الحديث قائلًا: "أرى أنه من الأفضل إلقائها بعيدًا، لا تعرف يا بلال، ربما تتحول لسم فتاك خارج الأرض التي وُلدت بها."

ملأ بلال فمه بواحدة منها ثم ابتلعها وقال: "لا أظن ذلك، أنا هنا ولم يصبني أي سوء."

نظر إليه رامو بنظرات مدققة ثم أشاح بوجهه بعيدًا، وشردت عيناه لبعيد، لمحته آسيا بعدما اعتدلت جالسة، ودون أن تدرى لم تستطع أن ترفع عينيها من عليه، إنها تشعر بل تكاد تجزم أنها رأته من قبل!

في غمرة تأملها إياه، لم تنتبه إلى أن نظراته عادت من رحلة شرودها لترتكز عليها، وعندما أفاقت على نظراته إليها، تسارعت دقات قلبها وأدارت رأسها إلى الناحية الأخرى، لتجد أونغ مازالت راقدة على جانبها تتأمل العالم بالأسفل، ولتجد تقية جالسة توزع نظراتها بينها وبين رامو، وعلى شفتيها رسمت تلك الابتسامة الخبيثة المستفزة، قالت لها بنبرة حادة: "هل يوجد شيء هنا يجعلك تبتسمين بتلك الطريقة تقية؟."

أغمضت تقية عينيها واهتز جسدها بضحكة خفيفة، ثم نهضت لتجلس بالقرب من آسيا وقالت لها متلطفة: "لم كل هذا الغضب الذي أراه في عينيك؟! لدى فضول لمعرفة جريمتك."

قالت آسيا بهدوء: "لا أريد أن أكون وقحة معك تقية، لكني لا أريد أن أتحدث عن حياتي السابقة، كما لا أريد أن أعرف شيئًا عنكم."

- لماذا يضيرك التحدث إلى هذا الحد؟ لستِ الوحيدة التي تملك ماضيًا مؤلمًا هنا، لكن هذا حقك بالتأكيد، بالرغم من أنني أرى أنه لا مانع من تمضية الوقت بالحديث، فنهايتنا قريبة على أي حال.

نظرت لها آسيا وقالت بابتسامة: "أنا أعتذر منك على طريقتي الحادة، إذا أردتِ التحدث عن حياتك أنتِ، تفضلي.. أنا كلي آذان صاغية."

ابتسمت تقية وهي تقول: "أنا أيضا لا أجسر على فتح أبواب الماضي، حسنا.. انسي ما قلته وأنا من عليه الاعتذار لأني ضايقتكِ."

- لا داعي للاعتذار، ربما نخرج من هنا بالنهاية على أرجلنا، ربما نخرج من هنا صديقتين نجحتا في الهروب من الجحيم.

مع مرور الوقت وتنامي سلطة الظلام، كان الوهج يزداد بالأسفل، كما يزداد نشاط الكائنات البحرية وحركتها الانسيابية بين الأعشاب المرجانية، حتى لتشعر بضجيج الحياة ينضح من تلك اللوحة المائية الخلابة، الحياة بوهجها الخلاب الذي يدفع الكائنات للحركة والمعيش، هذا الوهج الذي لا ينطفئ إلا بموتها، وبينما كانت اللوحة بالأسفل متقدة يكسوها الحيوية والنشاط، كانت اللوحة أعلى طبقة الجليد

خامدة، فبالرغم أنهم مازالوا يتنفسون إلا أن هذا الوهج انطفأ بداخلهم تمامًا، انطفأ حتى قبل أن يضعوا أقدامهم على تلك الأرض!

خلد الجمع إلى النوم عدا رامو، الذي رأته آسيا يسير بعيدًا بخطوات متأنية، بعدها اتخذت وضعية النوم وهي تنظر إلى الوهج بالأسفل، عندما رأته ينبض بوميض متراقص فذكرها بشيء لا تدري كنهه، ثم نقلها الوميض إلى غياهب النوم !

* * *

بضع رشفات من الكوب البلاستيكي المليء بالقهوة غنية المذاق، والانتظار. انتظار انقشاع تلك الغيوم التي غمرت سماء عالمه، منذ العملية الأخيرة التي قلبت الدنيا ولم تقعدها، ردود الفعل الأمريكية تنذر بسواد قادم، حالة الطوارئ أُعلنت في جميع أرجاء البلاد، حملات اعتقالات طالت العديدين من أتباع الجماعة ومن خارجها، اختفاء تام للأمير واعتقال واحد من قائدي العمليات، هذه المرة أيقن بلال أنها لن تمر مثل كل مرة، تنهد معتدلًا في جلسته على ذلك المقعد في حديقة جلشن إقبال، أكبر متنزهات لاهور حيث ينتظر قدوم ساجد القائد الثاني للعمليات، ليُطلعه على أي أخبار تبدد تلك الغيوم، رشفة أخرى

ثم تراجع بظهره للوراء، ليجد أن ساجد يجلس على الطرف الآخر للمقعد، كان وجهه مكفهرًا مخيفًا، قال وهو ينظر للأمام: "الأمير بخير يا بلال، سننتظر مرور العاصفة ثم سنعاود خططنا من جديد، لقد صدقت كلماته سيف الفجر تصدرت خارطة الجماعات الجهادية بباكستان."

-عن أي خارطة تتحدث يا ساجد؟! لقد انتهينا بالفعل، قل لي من تبقى منا الآن؟

-الأمير سيعاود الظهور بعد أن تمر الأزمة مع بقايا الجماعة، ثم سنعود من جديد.

-إذن كل ما عليَّ فعله الانتظار.

-بلال، أنت لن تنتظر!

-ماذا تقصد؟

-ستقدم روحك فداء للجماعة.

سقط الكوب من يد بلال رغما عنه وهمَّ بالكلام، لكن ساجد عاجله قائلًا: "ستكون كبش فداء للأمير والجماعة، هذا هو الاتفاق الذي عُقد بين الأمير وبين عناصر الجيش الداعمة لنا، سيتم القبض

عليك على أنك أمير الجماعة، وهذه الخطوة ستطفئ الكثير من النيران، وسيكون ظاهرًا للجميع أن سيف الفجر قد انتهى أمرها."

تكلم بلال وهو ينفث نارًا من فمه: "بتلك السهولة؟."

-أنت لست أقل من ذلك الشاب الذي فجَّر نفسه في الفندق، ما ستقوم به سينقذنا جميعًا !

-حقا؟ ولماذا لا تفعلها أنت؟!

-اختيار الأمير وقع عليك، لأنه يثق بأنك ستضحي بنفسك .

تسارعت أنفاس بلال ولم يدر بم يرد، هناك نحلة تطن في عقله الآن، هو لا يتذكر أي من قناعاته القديمة في تلك اللحظات، هو فقط يريد سلامه الشخصي، قبل أن يغادر ساجد ألقى كلماته الأخيرة: "تذكر أن الموت هو رفيقنا الدائم منذ التحقنا بالجماعة، الآن حان دورك وغدًا يحين دوري، فلا تنس في لحظات خوفك تلك القضية التي كنت تعيش من أجلها."

هرس بلال الكوب البلاستيكي أسفل حذائه بغل، ثم نهض من جلسته ليغادر المكان وهو يعتصر مخه اعتصارًا ليستدعي أى ذرة إيمان

بقضيته، ولكن كأنها تبخرت تمامًا، حيث برز مكانها إدراك آخر أقوى بمرات، وهو الهرب بحياته!

سارع الخطا ليخرج من المنتزه الأخضر ثم أشار بيده لأول تاكسي مار، عندما اتخذ موضعه في المقعد الخلفي، تناهى إلى مسامعه صوت الضجيج من الخلف، رأى السائق ينظر بفضول إلى ما وراء الزجاج الخلفي، ارتعشت أطرافه ولم يجسر على إدارة وجهه قيد أنملة، لقد أدرك أن ذلك الضجيج من أجله، حتى قبل أن يُفتح الباب الملاصق له، وحتى قبل أن تصوب تلك الفوهات الباردة على رأسه، كان يعرف.. كان يعرف أن هذا الضجيج في الخلف من أجله!

* * *

اتخذت الشمس طريقها إلى الأعلى بعد فجر يوم جديد، ناثرة أشعتها البرتقالية هنا وهناك، كان رامو من وقف أولًا على ضفة ذلك النهر الضيق، الذي اكتشفه عند آخر طبقة الجليد، هناك أرض أخرى مزهرة على الضفة المقابلة، الأمر يتطلب فقط عبور هذا الممر المائي الضيق للوصول إليها، لم يكن يشغل باله العمق، ولكن ذلك اللون الأحمر

الدموي للمياه، وتلك الأشياء التي تطفو هنا وهناك، والتي لا يدرى أهي كائنات ميتة أم حية أم هم بشر مثلهم لقوا حتفهم هنا!!

لحقه الجميع بعد أن أيقظتهم أشعة الشمس، ليقفوا جميعا على تلك الحافة يدرسون خطوتهم القادمة، قال بلال بعد صمت: "كل ما علينا هو العبور، أعتقد أنه ليس عميقًا."

قالت أونغ بخوف: "لا نعرف أي كائنات متوحشة تعيش بالأسفل."!

غمغم رامو قائلًا: "لا يوجد أمامنا حل آخر."

تبادلوا النظرات المتوجسة القلقة، ثم خطا بلال الخطوة الأولى داخل النهر، قال له رامو وهو يهم بالنزول: "حقيبتك.. أليست ثقيلة؟."!

قال بلال وهو يخوض في المياه بلا اكتراث: "لا."

وقف الباقون على الضفة وجلين، كانت المياه تصل لأسفل ذقن رامو وبلال، تشجع ميلان وهبط هو الآخر ليلحق بهما، ثم تبعته النسوة، كان منسوب المياه الدموية منخفضًا كما توقع بلال، فلم تتجاوز رقبتهم، لكن سيرهم في المياه كان بطيئًا، شعور بالتقزز قد غمر الجميع من تلك

المياه القذرة، تتابعت الخطوات المتقاربة لتقترب أكثر من الضفة الأخرى، حتى أطلقت أونغ صرخة غابت بعدها أسفل المياه!

توقفوا جميعًا وتبادلوا النظرات المرتعبة، كدرة المياه لا تتيح لهم معرفة ما تخبئه الأعماق الضحلة، وكالعادة كان رامو من تصرف أولًا، انخفض برأسه أسفل المياه ليجد أونغ هناك بالأسفل تتلوى، لم يكن هناك تمساح أو قرش يطبق على أحد أطرافها، لكنها من الذعر حسبت ذلك فكانت كأنها تقاتل شيئًا وهميًا! يبدو أنها فقط تعثرت، سارع بالغوص ناحيتها حتى أمسك بها ورفع رأسها أعلى المياه، تتابعت شهقاتها لتنال هواء غاب عنها لدقائق بدت كالدهر، بعدها طمأنهم رامو أنه لا شيء بالأسفل وحثهم على الإسراع.

تحرك هو ناحية المقدمة، وهو يكابد هول ما رآه بالأسفل عندما سقطت أونغ! لمست أرجلهم الرمال أخيرًا، ثم ارتموا عليها يلهثون ويتأوهون، وهم لا يعرفون سر هذه الآلام التي انتابتهم فجأة بعد مغادرة المياه، لكن رامو كان يعرف سر تلك الآلام، كما عرف أيضا لما رقد بلال على ظهره، ليلفظ أنفاسه الأخيرة أمام أعينهم المرتعبة!!

أرض رابعة

جريمتك هي مذهبك!

زهور بورما!

أونغ رسول

أحيانا تعتصر مخها من فرط جنون ألمَّ به.. لماذا حدث كل هذا؟!

تتخيل أنها تعود إلى الوراء وتفكر، أى حدث ستنتقيه من سلسلة الأحداث لتغيره، ليتغير هذا القدر الذي أخذ منها أسرتها في غمضة عين؟! هل ستتغاضى عن الإهانة وتمضي في طريقها كأن شيئًا لم يكن؟ تذكرت دخولها السوق، فصرخ عقلها.. إنه طبق الديوريانز السبب في كل هذا، ليتك لم تعرجين إلى بائع الفاكهة، فتصرخ هي أكثر.. ليتني لم أدخل السوق !

هبطت أونغ درجات السلم المؤدي إلى باب الخروج بخطوات مسرعة، كعادتها حين مغادرة عملها عند منتصف نهار اليوم، حيث

تلحق بالكاد الحافلة المتجهة ناحية مكان سكنها على أطراف مدينة يانغون، العاصمة القديمة لميانمار والتي تطل على الضفة الشرقية للنهر الذي تحمل المدينة اسمه، أما عن وظيفتها، فهي تعمل في وسط المدينة بأحد فروع شركات الاتصالات، من هذه النقطة، يبدأ أكثر مراحل اليوم إرهاقًا، فرحلة العودة إلى المنزل لا تسير فيها بل تطير، حيث تمر أولًا لأخذ طفلتيها ذوات الخمس والسبع سنوات من عند والدتها، ثم تتجه إلى منزلها وتدلف إلى مطبخها أولًا لتُعد الطعام، المكون غالبًا من الأرز أو المعكرونة وحساء السمك والخضار، قبيل قدوم زوجها الذي يعمل في أحد المصالح الحكومية، فلا تعاود الجلوس بعد كل هذا الركض إلا بعد الغروب.

بعد أن هبطت من الحافلة المكتظة، اتخذت طريقها لجلب الطفلتين، لكن قبل أن تولي دفة السير ناحية منزل والدتها، تذكرت أنها تحتاج شراء بعض حاجيات الغداء من السوق، لذلك دلفت إلى سوق البلدة لتنهي مهمتها أولًا، كانت ترتدي حجابًا صغيرًا فوق الزي الرسمي الذي تذهب به للعمل، فأونغ واحدة من مسلمي الروهينجا الذين يعيشون

في بورما كأقلية، حيث إن الغالبية.. من قومية البورمان الذين يدينون بالبوذية.

ينتشر المسلمون في أنحاء بورما، لكنهم يتمركزون في إقليم أراكان ومدينة ماندالاي ورانجون. تعتبر أقلية الروهينجا في بورما، من أكثر الأقليات التي تعرضت للاضطهاد في العالم، وكان إقليم أراكان صاحب النصيب الأكبر من أعمال العنف الذي اشتعلت في ذلك البلد الآسيوي. هناك تاريخ طويل من التفرقة بين البورميين والروهينجا، فالبورميون يزعمون أن الروهينجا هم مهاجرون من بنجلاديش، استوطنوا إقليم أراكان الملاصق لها على الحدود، ويطلقون عليهم البنغاليون كلفظة تحقيرية عنصرية، أما الروهينجا فيصرون على أنهم في تلك الأرض منذ القرن السابع عشر، عندما قدم الإسلام على أيدى تجار العرب المسلمين، فآمن به سكان تلك المنطقة.

عام 2011، انطلقت إحدى تلك الشرارات، عندما اُتهم ثلاثة من شباب المسلمين باغتصاب امرأة بورمية، فهاجم البوذيون حافلة وقتلوا عشرة من المسلمين، حتى قبل أن يتم البت في هذا الاتهام، لتنتشر أعمال

العنف في كل الإقليم.. قتل جماعي، إحراق البيوت، اعتقالات بالجملة من قِبل الجيش البورمي، الذي ارتكب العديد من الجرائم الموثقة ضد المسلمين فبورما ذات حكم عسكري، وكان من نتائج ذلك أيضًا نزوح الآلاف من الروهينجا لبنجلاديش، كما تكون جيش إنقاذ أراكان من مسلمي الروهينجا في بلدة مونغداو، للدفاع عن المسلمين والذي سدد ضرباته على مراكز الشرطة بالبلدة، وضع عنيف قاتم ودموي، غمامات سود ظللت السماء من دخان الحرائق، واصطبغ تراب الأرض وأنهارها بذلك اللون الأحمر، ليلون ذلك الصراع الطائفي الديني.

كانت الأمور في يانغون مستقرة وبعيدة عن تلك الحرب الدائرة، لكن ما أسهل امتداد النار إلى باقي الأرض التي تحمل نفس الفئات، بورمان وروهينجا.

جولة سريعة الخطى في أرجاء السوق أسفرت عن المزيد من الحقائب والأكياس في يدي أونغ، بعدها بدأت تتحرك خروجًا من السوق لتجد بائع الفاكهة ذلك متمركزا وراء عربته التي تعج بأنواع الفاكهة المختلفة، فكرت أنها ربما تريد إعداد طبق من الديوريانز المحبب إليها وللأطفال،

وهو خليط من العصائر والفواكه ومن الأطباق المميزة في بورما، وضعت أشياءها أرضًا واقتربت من البائع بعد أن ملأ لها كيسين مما طلبته، وقف منتظرًا ماله، ثم ثوان ووضعت له أونغ أمواله على العربة وقبل أن تهم بالانصراف، فوجئت بتلك اليد القذرة تتلمس مؤخرتها من الخلف!

لوهلة لم تصدق الأمر، نظرت للخلف فوجدت البائع جالسًا بابتسامة من أقذر ما يكون، تسارعت دقات قلبها بينما واصلت سيرها بخطوات ثقيلة.. هل تصرخ؟ هل تُحضر له الشرطة؟ لكنها نظرت حولها وتذكرت حجابها الصغير، لربما يجتمعون عليها وهي الضحية، قبل أن تبتعد عن محيط عربة الفواكه، سمعت الصوت يقول: "يبدو أنه أعجبك الأمر أيتها البنغالية."!

لم تستدر، بل ابتلعت الكلمات بصدر ملتهب وواصلت السير، لكنها عندما أوشكت على الخروج من السوق، لم تستطع أن تمضي هكذا دون رد الإهانة، وضعت أشياءها أرضًا، واختبأت وراء ذلك المبنى على مشارف السوق، ومن مخبئها هذا كانت ترى البائع -القريب منها-

بوضوح. نظرة إلى الأرض لتجد قطعة حديدية ذات حواف قاتلة، حملتها لتجد أن لها وزنًا لا بأس به. كانت النيران مازالت هناك بالداخل تؤججها، وكانت هي من جعلتها ترفع ذراعها عاليًا لتصوب بالقطعة الحديدية على رأس البائع، وهي أيضا من جعلتها تصيب هدفها بدقة، فقد علا صراخ البائع كأنه يحترق في الجحيم!

* * *

كان راقدًا على ظهره وعيناه تطالعان السماء، أنفاسه خافتة وصدره بالكاد يعلو ويهبط، حلقوا حوله جميعًا ليروا ماذا أصابه، فالجميع كان يشعر بالألم بعد أن غادروا المياه، لكنها كانت مجرد نغزات مؤلمة، عرفوا مصدرها عندما وجدوا جلد أيديهم تغزوه تلك النقاط الحمراء الصغيرة كلدغات الناموس، ركع رامو ورفع قميص بلال ليكشف عن بطنه، فبدا المشهد المريع الذي جعل الجميع يتراجع إلى الوراء، لقد كان جلد بلال ذائبًا تمامًا واللحم من أسفله مليئًا بالتجاويف، حتى تكاد أن ترى أعضاءه الداخلية، أغمض رامو عينيه وأعاد تغطيته، ليعيد له ذهنه ذلك المشهد أسفل المياه!

لم تكن المياه خالية من أسفلهم، بل كانت مليئة بتلك الكائنات الصغيرة التي كانت تجوب المياه بسرعة تتشمم أجسادهم، كائنات في حجم الضفادع وقريبة منها لكنها متوحشة، يبدو أن أجسادهم كانت مخدرة بالكامل أسفل المياه، فلم يشعروا بأي شيء، أما عن بلال فقد وجدها تغطي جسده بالكامل، وفهم على الفور أن السبب يعود إلى حمولة حقيبته من تلك الثمار، تراجع رامو ليقف بمحاذاة البقية، التي كانت ترمق الرجل المحتضر بخوف وشفقة، في لحظاته الأخيرة، بدأ الوشم على جبهته يتوهج مصدرًا وميضًا متقطعًا، وفي اللحظة التي همد فيها الجسد تمامًا توقف تراقص الوميض، لتتوهج الدوائر الثلاثة بثبات، ثم في اللحظة التي تلتها انطفأت تمامًا!

لدقائق اتشح المكان برهبة الموت، فبدوا كمن يصلي صلاة جنازة صامتة، بعدها تلاقوا النظرات التي تحثهم على مواصلة السير، فبدأوا يولونه ظهورهم واحدًا تلو الآخر، فلم يلاحظوا أن منسوب النهر ارتفع تدريجيا ليبتلع جسد بلال ثم عاد منحسرًا بهدوء إلى موضعه السابق !

ما وحد تلك الأرض كان اللون، لون نقي ساطع منتشر، أكثر درجات البياض نقاءً وبهاءًا، سهل أخضر ممتد من الزهور البيضاء بكافة أنواعها، أنواع رأوها من قبل في حيواتهم السابقة كالأوركيدا والزنابق والفلامنجو، وأنواع أخرى لم تنبت يومًا في أراضيهم، كان سهلًا ممتدًا ويجري بموازاته مجرى مائي صغير بمياه صافية رقراقة، والذي ما إن رأوه حتى سارعوا إلى النزول فيه ليغسلوا عن أجسادهم آثار الممر الدموي السابق، قالت تقية لأونغ وهي تعتصر شعيراتها السوداء الطويلة بعد أن صعدتا من المياه: "إننا نتساقط واحدًا تلو الآخر، تُرى من سيختاره الموت للمحطة القادمة؟ "!

قالت أونغ وهي تنظر للنسيم الذي يتلاعب بسيقان الأزهار: "هل رأيتِ توهج الوشم على جبهة بلال؟! إجابات.. ما أتمناه الآن إجابات لكل تلك الأسئلة، أنا لا أمانع أن يتلقاني الموت، فقط أريد أن أعرف وبعدها أموت بهدوء ."

-كلنا نتمنى الموت، هذا هو المستوى الذي وصلنا إليه، بالنسبة لي أتمنى أن يكون هذا المكان تكفيرًا عن ذنوبنا، لربما وجدنا الراحة بعد أن نغادر هذا العالم!

في تلك اللحظات، كان رامو جالسًا على ضفة النهر بجذع عار، يتأمل صفحة المياه التي لم يخرج منها ميلان بعد، عندما سمع صوتا أنثويا يحدثه قائلًا: "من أنت؟"!

نهض رامو مستديرًا ناحية مصدر الصوت، ليجدها آسيا، كانت واقفة تتطلع إليه بشعيراتها المبتلة، لم يتكلم بل ارتدى قميصه بحركة سريعة، بينما واصلت آسيا الحديث: "أشعر أنني رأيتك من قبل، لكني لا أتذكر متى أو أين."

قال هازًا كتفيه بلا مبالاة: "يحدث كثيرًا أن تقابل أحدهم لأول مرة، وتظن أنك تعرفه."

قالت بشرود: "لا.. أنا متيقنة مما أقوله، أمرك غريب جدا رامو، تتصرف كأنك تعرف كل شيء، كأنك وُجدت هنا من قبل."!

قال رامو وهو يغادرها ليُنهي الحديث: "ليس لأني أكثركم تماسكًا وعقلانية، تعتقدين أنني لست واحدًا منكم آسيا."

تأملته وهو يغادر ثم غمغمت قائلة: "لم أقلها، أنت قلتها، لست واحدًا منا."!

غربت الشمس في ذلك اليوم لتعود الأقمار الثلاثة لنشر بهائها الفضي الغائب، بينما تلقفتهم حشائش الأرض بلطف كفراش مريح من أفخم أنواع القطن والريش؛ لذا كان نومهم ملكيًا بامتياز تلك الليلة.

* * *

ليالي الأرق طويلة، ليالي الأرق كأنها أبدية لا نهاية لها، هكذا مرت على أونغ بعد حادثة السوق، لا تكاد تستقر على فراشها ليلًا، بينما نهارها شاغر بالركض بين العمل والأطفال وزوجها، وكل هذا الإرهاق الجسدي اليومي لم يجبر عقلها على النوم، ولأن أونغ من النوع الكتوم الصامت فلم تخبر أحدًا عن مخاوفها، حتى زوجها، كان ذهنها يرسم سيناريوهات عديدة للمستقبل وكلها قاتمة السواد، تتذكر إقليم أراكان والمشاهد المروعة به، وترى أن سيناريو مشابهًا قد يندلع في يانغون بسببها، امرأة من الروهينجا تقتل رجلًا من البورمان، لتندلع على إثرها الاشتباكات بين الطرفين في جميع أنحاء المدينة، لكن الوضع مختلف هنا، فالمسلمون في يانغون أقلية، أما عن أراكان فأغلبية، إلا أن هذا السبب بالذات قد يزيد عتامة الوضع، فإذا تشرذم الروهينجا في أراكان وهم

أغلبية، فكيف يكون وضعهم هنا وهم أقلية! فقط تأمل ألا تكون القطعة الحادة أحدثت ضررًا قاتلًا، لكن عندما تتذكر حوافها الحادة ووزنها الثقيل ترى أن هذا حلم بعيد .

سمعت صوت زوجها يغمغم وهو في أقوى حالات النعاس: "توقفي عن التقلب في الفراش أونغ."!

قالت بصوت خافت وهي تنهض: "آسفة."

كان الوقت في تمام منتصف الليل، ارتدت رداءً خفيفًا ووضعت الحجاب على رأسها لكنها تركته مفتوحًا، ألقت نظرة على الملاكين النائمين ثم ساقتها قدماها للحديقة الصغيرة التي تحيط بمنزلها، الرياح الموسمية تهب منذرة بسقوط الأمطار، تحمل صوت حفيف الأشجار ورائحة زهر البرتقال في الحديقة، لذلك واصلت السير خروجًا من الحديقة، بعد أن جلب لها شجن الليل بعضًا من الهدوء النفسي كانت بأمَّس الحاجة إليه، اجتذبتها الخطوات بعيدًا عن البيت دون أن تدري، مارة بالمنازل النائم ساكنيها وأشجار الموز والبرتقال، لا تعرف كم مر من الوقت، لكن رحلتها القصيرة جعلت النوم يفكر في مصالحتها من

جديد، كما جعلها تقرر أن تصارح زوجها بما حدث حتى يفكرا معا فيما ينبغي فعله.

كانت جالسة على أحد الصخور، عندما تثاءبت وبدأ جفناها العلويان يتثاقلان ليسقطا رغما عنها، فسارعت للمغادرة قبل أن يعود النوم لعناده القديم، واصلت الخطى في طريق العودة.. الذي بدا مختلفًا قليلًا!

كانت هنالك في الأفق تلك السحابة السوداء المنذرة، بينما اقتحمت أنفها رائحة الدخان، تنبهت حواسها كاملة، لتطرد أي ذرة نعاس ثم خطوات أخرى ووجدت نفسها أمام المشهد الذي لن تنساه ما حيت.. بيتها يحترق.. بيتها تلتهمه النيران! وبداخله الطفلتان وزوجها!

سقطت على ركبتيها وأطلقت صرخة مدوية، ثم زحفت عليهما كطفل يحبو بعد أن خذلتها قدماها، لتقترب من الجحيم المشتعل، لكن انفجارًا قدم من الداخل أطاح بها أمتارًا إلى الوراء.

رقدت على جانبها بعد أن فقدت القدرة على الحراك، وهي لا ترى في تلك اللحظات إلا الأجساد الثلاثة على أسرتها وهي متفحمة من

النيران، وعندما بدأ الوعي يتسرب منها بالتدريج، وقبل أن تفقده كاملًا، رأت ثلاثة رجال يغادرون المكان، من بينهم رجلًا تعرفه جيدًا، فقد جافاها النوم بسببه لأيام، لقد حُفرت صورته في تجاويف عقلها ولن تغادرها أبدا، نعم.. عرفته وتيقنت منه بالرغم من أنه كان بعين واحدة! بعد أن أطارت هي الأخرى في ذلك اليوم الكئيب!

* * *

عندما فتحت عينيها، كانت تتنفس بصعوبة بينما كان العرق يكسو جسدها الذي ارتفعت درجة حرارته، يبدو أنها محمومة بشدة؛ لأن جسدها كله كان يؤلمها، حالة غير متوقعة في الصباح الذي تلا تلك النومة الملكية التي ناموها جميعا بالأمس، همت بالاعتدال لكنها وجدت الحشائش أسفلها ملتصقة بجسدها! حشائش زاد ارتفاعها عن الأرض عن الليلة السابقة! كما وجدت العديد من الزهور البيضاء الصغيرة قد نبتت، والتي لم تكن موجودة بالأمس أيضًا!

أصاب جسدها قشعريرة وقد تذكرت صورة إيبو والأنياب منغرسة فيه، ولمع خاطر بداخلها أنه ربما تكون تلك الحشائش مثل الأشجار آكلة

اللحم التي اقتنصت إيبو، وعندما تمكَّن هذا الخاطر منها، نهضت بسرعة مبعدة الحشائش عن جسدها، لتترنح وهي واقفة.

نظرت أونغ ناحية البقية فوجدتهم أيضا شاحبين مغرقين في العرق، وقد فهم الجميع عندما نظروا إلى بعضهم البعض، أن حالتهم تلك لها علاقة بتلك الأرض المزهرة التي ناموا عليها بالأمس، اتجهوا جميعًا دون اتفاق ناحية النهر، يبللون أنفسهم حتى تنخفض حرارة أجسادهم، بعدها جلسوا جميعا على ضفة النهر، مبتعدين قدر الإمكان عن الأرض المزهرة، كانت أونغ أكثرهم إرهاقًا، حتى أنها لم تستطع الجلوس بل رقدت على جانبها، قال ميلان لرامو: "الأمر لا يحتاج ذكاءً شديدًا لنعرف أن تلك الأرض هي من جعلتنا على تلك الحالة، لو قضينا ليلة أخرى هنا سنكون قد انتهينا."

نظر رامو ناحية أونغ التي أراحت رأسها على فخذ تقية، بينما آسيا تصب عليها المياه لتخفيف وطأة تلك الحمى، ثم غمغم قائلًا: "يبدو أن هذه محطة أونغ."!

ثم صمت قليلًا وقال بعدها: "أو ربما نسارع بالخروج من هنا لننقذها."

أنهى جملته ثم اتجه ناحيتها وجلس بجوارها، ليقول لها بتعاطف: "هل تستطيعين السير أونغ، علينا أن نرحل بسرعة، هذه الأرض تُمرضنا."

بللت أونغ شفتيها بلسانها ثم قالت: "لقد اقتربت جدا، اتركوني وارحلوا."

قالت تقية بعينين دامعتين: "سنرحل كلنا، لن نتركك هنا ."

أسندتها آسيا لتجلس وهي تقول: "ستستندين علينا وسنخرج من هنا بسرعة، ستكونين بخير."

استسلمت أونغ للأيادي التي رفعتها، ثم بدأ الجمع في التحرك بمحاذاة النهر، طوال نهار كامل لم يتوقف سيرهم، أما عن أونغ فتارة تسير مستندة على تقية وآسيا، وتارة يحملها رامو، لكنها أخرت سيرهم كثيرًا، مما أثار تبرم ميلان الذي كان يفضل تركها على تأخرهم هكذا، لقد أوشكت الشمس على المغيب ولم يغادروا أرض الزهور بعد !

* * *

أحيانا تعتصر مخها من فرط جنون ألمَّ به.. لماذا حدث كل هذا؟!

تتخيل أنها تعود إلى الوراء وتفكر، أي حدث ستنتقيه من سلسلة الأحداث لتغيره، ليتغير هذا القدر الذي أخذ منها أسرتها في غمضة عين؟! هل ستتغاضى عن الإهانة وتمضى في طريقها كأن شيئا لم يكن؟ تذكرت دخولها السوق، فصرخ عقلها.. إنه طبق الديوريانز السبب في كل هذا، ليتك لم تعرجين إلى بائع الفاكهة! فتصرخ هي أكثر.. ليتني لم أدخل السوق!

توارت عن الأنظار بعد الحريق، حتى ظن الجميع أنها احترقت مع أسرتها، لكنها منذ اللحظة التى رأت فيها البائع ذا العين الواحدة، قررت أنها لن تواصل الحياة دون أسرتها، ستنهي حياتها لكن قبل ذلك ستكون قد انتقمت من هذا الوغد، تجدها كل يوم هناك، واقفة على مشارف السوق تراقبه يمارس حياته بشكل طبيعي كأن شيئًا لم يكن، تنسى كل شيء حولها وتمكث في هذا الركن لتراقب سكناته وحركاته، حتى لتظن أنها مولعة بحبه، الغريب أنها لم تره يتحرش بأي أنثى أخرى، إذن لماذا فعل ذلك معها بالذات؟ هل بسبب غطاء رأسها الصغير الذي أنبأه بأنها مسلمة؟ هل دمرت حياتها وقلبت عالمها رأسًا على عقب

بسبب هذا الغطاء؟! كانت تؤجج النيران بداخلها أكثر وأكثر، وتشحذ سكين الانتقام من أجل تلك اللحظة الموعودة، عرفت مسار حياته اليومي وحفظته عن ظهر قلب، وفي اليوم المنتظر، اختبأت في ذلك الطريق شبه النائي المليء بالأشجار، والذي يعرج عليه يوميًا في طريق عودته للمنزل .

بخطوات متأنية كان يسير، مصدر صفير ناعم يسلي به وحدته في الطريق، الصفير الذي قطعه عندما شعر بمن يتحرك خلفه، توقف عن المسير واستدار إلى الوراء، لكنه وجد الطريق خاليًا. التف ليكمل طريقه لكنه لم يخط خطوة واحدة إلى الأمام، إذ سقط مصدرًا صرخة متألمة، على إثر ذلك السكين المشحوذ الذي ولج حتى المقبض في معدته، سقط على ظهره فاعتلته كنمر جريح، بينما واصل هو الصراخ، قربت النصل من وجهه منذرة إياه، فتحول الصراخ إلى أنين متقطع، تواجهت الأعين.. عين واحدة مرتعبة وعينان طار تعقلهما، غمغمت بصوت مرعب: "هل تتذكرني؟."!

أصدر إيماءة مرتعشة برأسه أي نعم.

واصلت سؤاله: "هل تعرف من فقدت بهذا المنزل أيها القذر؟."!

لم يجب بل أخذ يبكي متوسلًا، فقالت: "هل تتوقع أن أرحمك؟."

همدت حركته ونظر لها بصمت، ثم هز رأسه أي لا!

عندها فقدت أونغ آخر ذرة تعقل لديها، وانهالت عليه بالطعنات!

* * *

عادت الأقمار تنير الأفق، لتتلألأ الزهور البيضاء تحت النور الفضي، من يرى هذا الجمال، لا يتوقع أبدًا أن يكون وراؤه خطرًا محدقًا، تثيرك الأرض وتغريك، فقط سلم جسدك للحشائش الناعمة، لن تجد فراشًا أنعم ولا أكثر راحة، وكالغرير تسلم جسدك المتعب من الرحلة العجيبة إليها، ثم تستيقظ لتجد أنها تسلب حياتك لتحيا هي، هكذا بعد أن تعبوا من مسير نهار كامل، بدا أن تلك الأرض لن تنتهي أبدًا، سلموا بالأمر وتوقفوا، يبدو أنها تريدهم ليلة أخرى، أو بمعنى أدق هي لن تتركهم حتى تتسلم وجبتها منهم، كان الأمر يقينا بداخلهم، لقد أصبح كالقدر والذي لا بد سينفذ رغمًا عنهم، اختاروا مجلسًا على حافة النهر بعيدًا عن الحشائش، واستقروا في أماكنهم على شكل خط مستقيم بموازاة المياه،

كانت أونغ مازالت متعبة ولم تتحسن حالتها، عكس البقية الذين استردوا عافيتهم سريعًا، ربما هي أرادت الأمر بداخلها، أن تسلِّم نفسها لتلك الجنة البيضاء، علها تُلاقي أحبتها بعد طول فراق، لذلك انهارت مناعة جسدها أسرع من البقية، في تلك الليلة تسلمهم النوم بسرعة أكبر من المعتاد، كأن الأرض تتعجل الحصول على وجبتها بعد طول انتظار!

كانت آسيا من استيقظت أولًا، لكنها ظلت راقدة على جانبها تتأمل الأزهار وهي تشع تحت ضوء الصبح الوليد، هذا اللون الأبيض يدق شيئًا في ذاكرتها لا تدري كنهه، مثله مثل رامو! غاصت بعينيها في البتلات البيضاء حتى توحدت بكيانها معها، وفي تلك اللحظة رأته.. رأت الوميض! نهضت بسرعة، بالرغم من حالة الإرهاق التي استبدت بجسدها بعد النوم، اقتربت من الزهرة ولمست أوراقها لكن الوميض كان قد اختفى، وقفت مكانها ترقب المساحة المزهرة البيضاء أمامها، وتحركت الرياح لتتراقص عليها السيقان، مصدرة حفيف يقارب الموسيقى، موسيقى لم تسمع مثلها يومًا، أرجعت رأسها للوراء مغمضة عيناها وأرهفت السمع، ألحان عذبة تنساب لتطرق طبلة أذنيها برقة.. ألحان قطعها صوت نحيب باكٍ!

استدرات بسرعة وهرولت ناحية النهر، لتجد تقية جالسة أمام شيء تخفيه بظهرها عن أعينها المتسائلة، بينما وقف رامو عند رأس تلك البقعة واضعًا يده على وجهه، ومن ورائه ميلان ينظر لنفس الشيء بوجه ممتقع! تعالت دقات قلبها وهي تقترب، وقد تنبأت بأنهم فقدوا أونغ.. وقد كان!

هناك في تلك البقعة التي اتخذت شكل جسدها، رقدت أونغ على ظهرها، بالرغم من أنه كان من الصعب تبين ملامح جسدها في تلك اللحظات، فقد اخترقت الزهور البيضاء جسدها كله عدا وجهها!

اقتربت آسيا واضعة يدها على شفتيها وتلألأت في عينيها دمعة ساخنة لم تسقط، كان وجه أونغ شاحبًا جدًا وشفتاها يملؤهما القشور، وكما حدث مع بلال توهجت الدوائر بالوميض، ابتسمت أونغ في لحظتها الأخيرة، انطفأ الوهج، ثم أغمضت عينيها للأبد!

❁ ❁ ❁

أرض رابعة

جعلته كوكبها!

ابتسمي.. فقط من أجله!

تقية إبراهيم

(أحبوا هونًا وأبغضوا هونًا، فقد أفرط قوم في حب قوم، فهلكوا، وقد أفرط قوم في بغض قوم، فهلكوا)

حسن البصري

تلاقت عيناها مع نظيرتها على السطح العاكس، بينما كانت تمشط شعيراتها السوداء الطويلة الكثيفة شديدة النعومة، هذا التاج الأسود على رأسها، أجمل ما تملكه كأنثى، فهي لا تملك مقومات الجمال الصارخ، أو ربما هي أقنعت نفسها بذلك، جسد طويل بأنوثة فائرة، وحرير أسود يصل إلى آخر ظهرها، إذن ما ينقصها لتصير ملكة متوجة؟! إنه وجهها ببساطة، لم تكن تثق به.. فملامحه حادة لا تتناسب مع أنثى تفيض رقة

من الداخل، حتى أنها أحيانا تشعر أن به شيئًا من الرجولة، كانت تفكر.. لو كان أنفي دقيقا، لو كانت عيناي أكثر اتساعًا، لو كانت شفتاي منتفختين قليلًا، بالتأكيد كنت سأكون أجمل بكثير، طمأنت نفسها أنها تستطيع تغيير وجهها بمبضع جراح تجميلي، فقط عندما يتوفر لها المال، بعدها امتدت يدها إلى أدواتها التجميلية، لتُجري جراحة سريعة ومؤقتة، وحدت اللون، ثم أضافت أسود هنا، ووردي هنا وأحمر هناك، ثم بعد أن انتهت ونظرت إلى وجهها مرة أخرى، وجدت أنه لا بأس به على الإطلاق، تبدو بالفعل كملكة جمال بعد تلك الجراحة السريعة.

نهضت من جلستها الطويلة المعتادة قبل قدومه، نظرت حولها.. كل شيء نظيف مرتب أنيق، ورائحة معطر تعبق أجواء الشقة، كما أنها انتهت من إعداد الغداء الشهي، الذي لا تستطيع أي امرأة أن تنافسها في جودة طبخه، ربما بالفعل هي الزوجة المثالية التي يطمح إليها أي رجل، تهتم بمظهرها إلى أقصى درجة، حتى يصل الأمر إلى حد الوسواس، بالرغم أنها لا تثق في جمالها، أو بلفظة أدق.. لأنها لا تثق في

جمالها، بيتها آية من آيات النظافة والترتيب، طعامها ولا أجود، هذه هي تقية، التي تزوجت من ذلك المهندس المعماري الوسيم منذ ما يقرب من الأربع سنوات، زواج لم يسفر عن أطفال بعد، وكان بيت الزوجية السعيد في مدينة أصفهان جنوب طهران العاصمة الإيرانية، كبرت وتعلمت وتخرجت من الجامعة، لكنها كانت من طراز النساء الذي لا يؤمن بأن المرأة تمتلك حياة خاصة بها.. تتعلم، تقرأ، تعمل، تجتمع مع صديقاتها، أي تفعل كل ما يفعله الرجل، ما كانت تؤمن به تقية، أن كل شيء تفعله هو من أجل الرجل الذي سيكون زوجها.. فهي إن تجملت تتجمل من أجله، إن قرأت فلتبدو مثقفة أمامه، إن تعلمت فلتظفر برجل ذى مكانة مرموقة، كل شيء تفعله تفعله فقط من أجله، متيمة بالعشق لدرجة لم تصل إليها امرأة من قبل .

بعد أن تزوجت، تمركزت في مملكتها من أجل زوجها، الذي كان من الطراز المحافظ فلم يكن يسمح لها بالخروج كثيرًا أو الانخراط في المجتمع الخارجي، والحقيقة أن الأمر لم يضايق تقية، بل رأت أنه نوع من أنواع الغيرة التي تحب كل أنثى أن تكون موجودة في رجلها، لذلك حتى

لو فرض هو عليها القيد فهي لم تمانع بالمرة، فالأمر كان يروقها، والحق يقال إنه كان لطيفًا وحنونًا جدا معها، ولو نظرت إليهما لن ترى إلا عاشقين متيمين، كان هو كوكبها وهي قمره الذي يدور في مدار ثابت لا يحيد حوله، وكانت متيقنة أن كل ما بداخلها هو مرآة لما بداخله، نعم.. لا شك في ذلك!

سمعت صوت جرس الباب فابتسمت، ثم نظرت نظرة أخيرة مدققة إلى نظيرتها على السطح العاكس، بعدها سارعت لاستقبال نجمها الخاص!

* * *

تسارعت أنفاسهم وهم يواصلون رحلة الخروج من الأرض المزهرة، لم يكن هذا الإجهاد نتيجة استنزاف الأرض السابقة لقواهم فقط، ولكن أيضًا لأن الطريق الذي كان يسيرون فيه قد بدأ يأخذ مسارًا تصاعديًا للأعلى، كأنهم يتسلقون أحد الجبال، حتى وصلوا إلى حافته فتوقفوا تباعًا يرمقون السهل بالأسفل، حسنا.. من المعروف أن قوس قزح يظهر بالسماء، لكن تلك المرة كان مطبوعًا على السهل الأرضي

الشاسع بالأسفل، رأوا عن يمينهم ذلك الممر الثعباني المتلوي، الذي سينقلهم إلى قوس قزح الأرضي هذا، ثم ودون تفكير بدأوا يهبطون واحدًا تلو الآخر.

أول مساحة لونية وطأتها أرجلهم، كانت اللون الأحمر الذي طغا على كل شيء.. التربة، الأشجار، الحشائش، الأزهار، حتى الأوراق والسيقان كانت حمراء دموية، سارع الأربعة إلى الثمار المتدلية فقد بلغ منهم الجوع مبلغًا عظيمًا، بعدها جلسوا في أماكن متفرقة قريبة يلتهمونها، كانت تقية أكثرهم حزنًا وتأثرًا بوداع أونغ، لذلك امتزج طعم الثمار الحمراء الحلوة بملوحة دموعها المتساقطة من وقت لآخر، لاحظتها آسيا فاقتربت منها، بالرغم من أنها لا تملك أي قول تواسيها به، سوى أنها محطة أونغ، وأنهم جميعًا سيلحقون بها قريبًا، فقد صار هذا الأمر يقينًا كالقدر، ربما كل هذا هو تكفير لذنوبهم قبل مغادرة الحياة للأبد، تطلعت للأمام فوجدت ميلان يتطلع إليهما، بعينين خاويتين يائستين وبفم شبه مفتوح كأنه مجذوب، يبدو أنه على وشك فقدان عقله هو الآخر، ثم دون أن تدري وجدت عينيها تبحثان عن رامو، لكنها لم تجده بالجوار، فربتت على تقية ثم نهضت لترى أين ذهب .

تحركت بخطوات بطيئة تستكشف المكان، باحثة بعينيها في أرجائه، فلمحته مستندًا على جذع أحد الأشجار، متلمسًا رأسه بأطراف أصابعه ومخفيًا جبهته براحة يده، اختبأت آسيا خلف أحد الأشجار لتراقبه بفضول، ثوان مرت ثم أبعد رامو راحته عن مقدمة رأسه، فبدت جبهته واضحة تمامًا أمام أعين آسيا المندهشة.. لقد كان وشم جبهته مضيئًا تمامًا!

* * *

في هذا الوقت من اليوم، كانت تمارس ما اعتادت على فعله يوميًا بنفس الروتين دون كلل.. تنظيف المنزل، كالنحلة تنتشر هنا وهناك، تجمع أغراض مبعثرة لتضعها في أماكنها الصحيحة، تمسح الغبار عن الأثاث، تكنس الأرض وهكذا في جميع أجزاء الشقة، حتى دلفت إلى غرفة مكتب زوجها، لتفعل بها ذات الأشياء، رتبت الأوراق والكتب على المكتب الذي كان يتوسطه الحاسب المحمول لزيان زوجها، كان مغلقًا ففتحته بلامبالاة لتمسحه من الأتربة بالداخل، ثم قبل أن تعاود غلقه، توقفت وقد اعتراها فضول أنثوي لرؤية عالم زيان الخاص، لكن

هذا العالم كان مغلقًا بمستطيل فارغ يتطلب أن تُدخل إليه كلمة مرور سرية .

وقفت في مكانها شاردة تتأمل هذا المستطيل الذي يفصلها عن عالم زيان، ثم جربت أن تدخل كلمة السر الذي يضعها زوجها لخزينة المنزل، فهناك أشخاص يستخدمون نفس كلمة السر لأكثر من شيء لأن ذاكرتهم ضعيفة، وقد كان تفكيرها في محله فلقد فتحت البوابة بعد أن أدخلت مجموعة الأرقام أمام أعينها الفضولية، مرت دقائق قليلة عاودت بعدها إغلاق الحاسب بقلب يتواثب انفعالا، توجهت إلى مطبخها بساقين مرتجفتين لتُنهي الغداء، بالرغم من حالتها تلك، لكن تلك المرة لم تجد فعل الشيء الذي تبرع فيه، فبعدما أتى زوجها وجلسا ليتناولا الطعام، كان يبدو أن مذاقه سييء على غير العادة ولأول مرة، قال لها بضيق: "اللحم طعمه سييء جدا، ما بالك يا تقية؟ ".

كانت شاردة ممتقعة لكنها ردت بسرعة: "آسفة زيان، كنت متعبة اليوم ".

-وجهك متغير على غير العادة، هل حدث شيء؟

-لا، لا، أنا فقط متعبة.

نهض من جلسته بضيق ثم قال وهو يغادر المائدة: "أنا عملي مرهق وأنتِ تجلسين بالمنزل طوال اليوم، أقل شيء عليكِ أن تقدميه لي أن يكون طعامك جيدًا وأن يكون وجهك مبتسمًا، هل هذا أمر صعب؟"!

غادرها واتجه إلى غرفته فظلت جالسة في مكانها واجمة، هو يظن أنها تجلس بالمنزل بين الراحة والنعيم، لا يعرف المجهود اليومي المبذول بين تلك الجدران، لأنها كل مرة تُنهي كل شيء قبل قدومه، فيتوقع أن هذا البيت خُلق مرتبًا أنيقًا هكذا دون أن تمتد إليه أي أيدي، ما يوجعها الآن ليس عدم التقدير ولكن تلك المشاهد التي تطلعت إليها على حاسبه، كيف تتعامل معه بعد أن اهتزت صورته في عينيها؟

إن زيان رجل متدين محافظ ولم ينتابها ذرة شك في ذلك، إذن لم يمتلئ حاسوبه بتلك الأفلام الخليعة؟ وضعت يديها على وجهها وهي تفكر في أنها ربما السبب.. ربما هي مقصرة!

ملأت الفكرة عقلها واستقرت، نعم.. أنا مقصرة، لذلك وبالرغم من هذا الألم الذي اعتراها، قررت أنها ستُصلح الأمر، لأنها المرأة،

ولأنها تحمل مسئولية كل شيء فوق رأسها، حتى التزام زوجها الأخلاقي هي مسئولة عنه، لذلك رسمت على وجهها ابتسامة آلية ونهضت لتراضيه، نعم.. يجب ألا تملأ حياته بالعبوس، يجب أن تبتسم.. فقط من أجله!

* * *

تراجعت إلى الخلف ببطء حتى لا ينتبه إلى وجودها، كانت تشك بأمره منذ البداية، من هو؟ أو ما هو؟!

يتصرف بعقلانية شديدة وسط كل تلك المخاطر، التي قابلوها مذ وطأت أرجلهم شاطئ الجزيرة، ثم هذا الوشم المتوهج على جبهته، إنه لا يتوهج إلا في لحظات الاحتضار قبيل الموت، كما رأت مع بلال وأونغ، خواطر عديدة مرت بداخلها، هل تخبر تقية وميلان بهذا الذي رأته، ليكونوا حزبًا ضده، من الممكن أن يضيِّقوا الخناق عليه حتى يعترف بكل ما يُخفيه، لربما كان يعرف سر هذا المكان ويملك مفتاح خروجهم منه، لكن بالرغم من شكوكها في شخصه، كان شيئا بداخلها ينبئها أنه ليس بالشر الذي تتوقعه .

بخطوات شاردة واصلت سيرها حتى رأت تقية، كانت جالسة مستندة على ركبتيها خلف بعض النباتات تراقب شيئًا ما، ثم استدارت بوجهها لتتلاقى أعين المرأتين، وضعت تقية سبابتها على شفتيها، في أمر صامت منها لآسيا بالتزام الهدوء، ثم أشارت إليها لتقترب، تحركت آسيا ببطء حتى أصبحت بجوار تقية، لتأخذ نفس وضع جلوسها ولترى ما تراه.

كن هناك في تلك البقعة الحمراء، يقفن متلاصقات منتصبات مصدرات صوت خافت جدًا، ويتحركن كالبندول يمينًا ويسارًا لكن ببطء، جلودهن شديدة البياض وأجسادهن بلا أي تضاريس أنثوية، على رؤوسهن ضفائر جلدية حمراء متوهجة، أما وجوهن فتثير الرعب في القلوب، هل رأيتم وجه المهرج الملطخ بالأصباغ، وابتسامته الملونة المزيفة الحمراء التي تمتد من الأذن للأذن؟ حسنا.. هذا هو شكل جلد وجوهن دون أصباغ !

ارتجفت المرأتان من هول المشهد المهيب ثم تراجعا بحذر ليلحقا بميلان ورامو اللذان كانا يجلسان على الأرض، نظرت آسيا إلى وجه

رامو، فوجدته منطفئ الوشم، ترددت هل تخبر الجميع الآن عنه؟ لكنها آثرت الصمت، تكلمت تقية لتخبر الرجلين بما رأته، فكان الإجماع المعتاد على التحرك لمغادرة المكان، ساروا محاذرين إصدار جلبة، حتى لا يثيروا انتباه أي من تلك النساء المخيفة، لكنهم وجدوا أنفسهم في مواجهة واحدة منهن!

كانت واقفة هنالك وقد انتفخت ضفائرها الجلدية الحمراء وتوهجت الألوان على وجهها، بينما برزت أنيابها من شفتيها اللتين امتدتا من الأذن للأذن، لم تتحرك من موضعها، فقط كانت ثابتة بتلك الابتسامة المخيفة، تجمد الجميع في أماكنهم دون حراك، وعندما سمعوا صوت الفحيح، لم يقووا على منع أرجلهم من الركض.

* * *

لشد ما تغيرت في خلال فترة قياسية، حتى أنها اكتشفت جوانب من نفسها لم تكن تتخيل أنها هنالك نائمة تنتظر من يوقظها، بعد تلك الصدمة الأولية، كانت مازالت على تفكيرها القديم، أنها السبب وأن لجوء زوجها إلى الإباحية يرجع إلى كونها قصرت في منطقة ما دون أن

تدري. شحذت همتها أكثر معه، المزيد من الاهتمام به والمزيد من الاهتمام بنفسها، المزيد من البحث على الإنترنت عن كيفية إرضاء زوجها في العلاقة الحميمية، المزيد من البحث عن الطرق التي يجب أن تفعلها المرأة حتى لا يرى زوجها غيرها، لكن كل هذا المزيد لم يسفر عن شيء!

اعتادت الولوج إلى حاسبه في أوقات غيابه عن المنزل، لتتابع نتائج جهدها الحثيث أولًا بأول، لكنها كانت تجد المزيد والمزيد من تلك الأفلام، بل وتوالت الصدمات الأخرى!

عندما دخلت لحسابه على الفيس بوك وتويتر وغيرها من مواقع التواصل، وجدت وجها آخر إضافيًا، لقد أبهرها زوجها حقا كالبصلة، التي كلما قشرتها، كلما وجدت طبقات أكثر بالداخل! كل تلك السنين، كانت ترى صورة أحادية الأبعاد لزوجها المصون، بينما هو شخصية ثلاثية الأبعاد تحتاج منظارًا خاصًا لرؤية جميع أبعاده، وكان منظارها الخاص هو الإطلاع على العالم الذي يُخفيه بداخل حاسوبه، الأمر لم يقتصر على تلك الأفلام، لقد تعدى ليشمل الخيانة بجميع مراحلها بدءًا

من الأحاديث الكتابية البذيئة مع العديد من الفتيات، حتى وصل إلى الخيانة الجسدية عندما رأت رسائل مع مومسات، للاتفاق على تفاصيل لقاءاتهن الخاصة نظير الأموال!

إذا كان كل ما تفعله هو الدوران حوله، إذا كان هو مركزيتها، إذا كان هو قوة الجاذبية التي تربطها بالأرض، فكيف ستواصل المعيش بعد كل ما رأته!

لقد انهار عالمها حرفيًا، توقف قلبها عن النبض وعقلها عن التفكير، لو كانت امرأة عادية، كانت ستتركه دون أن تجلب لنفسها المزيد من الألم، نعم سيحتاج الأمر لكثير من العلاج النفسي، لكنها كانت ستتجاوزه في النهاية، أما في حالة تقية.. تقية العاشقة، فقد بدا أنها جُنت رسميًا وهذا لسوء حظ زوجها المصون!

مع كل هذا الألم، لم يشعر بذرة تغير فيها، النساء تبكي تصرخ تلوم تعاتب، لكنها صمتت وتعاملت معه كأن شيئًا لم يكن، كأنها تعيش أقصى حالات السعادة الزوجية، لكن بمجرد أن يُغلق عليها بابها، كانت تعيش السقوط وحيدة، بكاء، صراخ، تمزيق ملابس، تكسير أواني،

تفعل كل هذا، ثم تعيد كل شيء مكانه قبيل عودته، لتفتح له الباب بابتسامة عريضة!

بعد أن غادرها في ذلك اليوم، وبعد أن مارست طقسها المعتاد في البكاء، توقفت.. توقفت لتنظر لوجهها في المرآة، كفكفت دمعها، غسلت وجهها، جلست لتضع زينتها، بعد أن انتهت ونظرت إلى وجهها المتورد الجديد، ابتسمت لأنها حقًا جميلة، ولأنها توصلت إلى الحل أخيرًا، ونطقته أمام نظيرتها على السطح العاكس التي نظرت لها برعب عندما تكلمت قائلة: "سأقتلك يا زيان."

* * *

إنه الهرب مرة أخرى، لكن تلك المرة لم يركضوا كثيرًا، لأنهم لاحظوا أن تلك المسخ لم تتبعهم، فقط ظلت واقفة ترمقهم وهم يبتعدون، وعلى وجهها تلك الابتسامة الثابتة، لذلك توقفوا بعد أن غابوا عن ناظريها، قال ميلان وهو يمسك ببطنه لاهثًا: "لم تطاردنا، يبدو أنه لا خطر منها، شكلها مخيف لا أكثر."

تكلم رامو قائلًا بأنفاس متسارعة: "حتى لو لم تكن مؤذية، سنواصل التحرك للخروج من أرض قوس قزح تلك."

تكلمت آسيا قائلة بتصميم: "لم علينا المغادرة مثل كل مرة؟ لست قائد المجموعة لتأمرنا."

نظر إليها رامو بصمت، ثم تكلم قائلًا: "ما الذي يضيرك آسيا فيما أقوله؟."

رفعت آسيا صوتها وهي تقول: "أمرك مشكوك فيه يا رامو، تبدو مختلفًا تمامًا عنا، نادرًا ما تُظهر الخوف بل تبادر دائمًا برسم الخطوة القادمة لنا، أشعر أنك لست منا، أنت مدسوس علينا."

قالت تقية وهي تنقل نظراتها بين الاثنين: "ما بك آسيا؟ هل رأيتِ شيئًا منه؟ ليس ذنبه أنه أكثرنا شجاعة وعقلًا."!

تبرم ميلان من جملة تقية، بما أنه رجلهم الثاني، فقال: "حسنا.. أعتقد أن آسيا على حق، أنا أيضًا أشك فيه من البداية."

قالت تقية لتهدئ الجمع المتوتر: "الخوف سيجعلنا نفقد أعصابنا لندب الخلاف بيننا، الأمور هكذا ستزداد تعقيدًا، هل رأيتِ شيئًا منه يا آسيا يجعلك تقولين ذلك؟."

صمتت آسيا وهي تهرب بعينيها منهم، ثم بتردد قالت: "لا."

قالت تقية: "حسنا.. أنا أعتقد أنه من الأفضل مواصلة التحرك مثلما قال رامو."

صمت الأربعة للحظات، بعدها ولاهم رامو ظهره مبتعدًا، بينما تابعته آسيا بعينين يملؤهما الشك والحيرة، بعدها جلس ميلان في مكانه ضامًا ركبتيه إلى صدره ومطئطئ رأسه، قالت تقية لآسيا بخفوت: "هلا نبتعد من هنا قليلًا؟."

وافقتها آسيا وسارا على مهل بعيدًا عن ميلان، بعد أن ابتعدتا قالت لها تقية: "رامو أفضلنا، أشعر بهذا، كما أشعر بأنه يكن لكِ الكثير."

همت آسيا بالتكلم، فقاطعتها تقية قائلة: "لا تجادليني أرجوكِ، أعرف تلك النظرات جيدًا، أنا فقط أريدك أن تثقي به أكثر من ميلان هذا."

صمتت قليلًا وقالت بعدها: "انتظريني هنا"، ثم أشارت لمعدتها بمعنى أنها تريد دخول الحمام.غمغمت آسيا قائلة: "حسنا أنا بانتظارك."

تحركت تقية بضع خطوات ثم ذهبت خلف بعض الأشجار، لتجد أنهم على مقربة من الدخول في المساحة اللونية التي تلي المنطقة الحمراء،

بدأت تفك أزرار بنطالها، عندما سمعت صوتًا جعلها تتوقف، كان قادمًا من بقعة على الأرض لم تنتبه إليها، وعندما اقتربت وجدت تلك البقعة مليئة بالمياه كأنها بئر في قلب الأرض، نظرت لسطح المياه العاكسة لتطالعها نظيرتها التي لم ترها منذ فترة كبيرة جدًا، لكنها بدت لها قبيحة وشاحبة إلى حد كبير، لمست الرمال الحمراء بإصبعها، لتضع قليلًا منها على شفتيها ووجنتيها، ثم عاودت النظر لتجد نظيرتها قد ازدادت جمالًا، ابتسمت وهي تطالع صورتها، لسخف ما تفعله وهم في مثل تلك الظروف، لكنها واصلت التحديق لوجهها بابتسامة واسعة!

* * *

جلست على المقعد الوثير قبالته متأملة إياه، كان نائمًا في وضع مصلوب، بعد أن شدت أطرافه الأربعة وقيدتها بالحواف الأربع للفراش بسلاسل معدنية، كما كممت فمه بشريط لاصق، بينما كان وعيه غائبًا في عوالم أخرى، على إثر المنوم الذي وضعته له في شرابه، استغرقها الوصول إلى تلك النقطة بضعة أشهر، بعد صدماتها المتوالية فيه، بعد أن

تعدت مرحلة السقوط وقفت على قدميها لتكرس حياتها من أجل هدف جديد، وهو قتله!

فكرت في كل تفاصيل التنفيذ وأعدّت كل شيء حتى أتى الوقت والمكان الملائمان، بعد أن أخذها زوجها في عطلة لعدة أيام عند سفح جبل دماوند بمدينة مازندران، حيث يملكان بيتًا خشبيًا هناك، عرفت حينها أن وقت التنفيذ قد حان؛ لأن البيت في مكان منعزل أي سيكون موضعًا ممتازًا لتنفيذ جريمتها.

في تلك اللحظات، كان زوجها قد بدأ يسترد وعيه، غير مدرك للجحيم الذي ينتظره في الساعات القادمة، لم تصبر حتى يفتح عينيه ليفهم ببطء ما الذي يجري، بل شرعت في صفعه على وجنتيه لتفيقه بقسوة، بعد مرور لحظات الصدمة والضباب الأولى، وبعد أن وعى زيان أخيرًا أنه مقيد على يدي زوجته، ظل يزووم بغضب أسفل كمامته، في حين وقفت هي تتأمله بابتسامة باردة، عاقدة ذراعيها أسفل صدرها، نزعت كمامته لتتركه يتكلم، فزفر زفرة غضب وتكلم قائلًا: "هل جننتِ

يا تقية؟ ما الذي تفعلينه؟ هل هذه أحد الألعاب الزوجية السخيفة لإغرائي؟ "!

أصدرت ضحكة عالية، ثم قالت وهي تهتز: "هل تعتقد أن تلك هي أحد الألعاب الجنسية لإغرائك يا زيان؟! ألهذه الدرجة تثق في أنني لن أفكر في إيذائك؟."

تغير وجهه وبدأ يتسلل إليه الخوف، لكنه تماسك وهو يقول: "هل تريدين إيذائي تقية؟."!

واصلت الضحك فبدت كالمجنونة، ثم قالت: "عزيزي، أنا لن أؤذيك، أنا سأقتلك فقط.. لكن بالبطئ."

تسارعت أنفاسه وهمَّ بالصراخ، لكنها وضعت اللاصقة بسرعة على فمه، فأخذ يتلوى في موضعه مصدرًا أنينًا مكتومًا، أمسكت زجاجة رشاش تشبه تلك المستخدمة في ري الزهور، ثم قربتها من ساقه العارية وضغطت المكبس، لينطلق رذاذ متوالي، جعله ينتفض على الفراش متألما، ثم قربتها من وجهه منذرة إياه بعدم إصدار أي صوت، خلعت

اللاصقة فأخذ يبكي بكاءً مريرًا وهو يتألم من ساقه التي نزفت منها الدماء!

نعم.. لقد عبأتها تقية بمادة حمضية تذيب الجلد، هكذا هداها شيطانها ليشفي غليلها وليكتمل انتقامها، ظلت صامتة تنظر إليه وهو يبكي دون أن يتحرك بداخلها أي مشاعر للشفقة، خرجت منه الكلمات المنهكة البطيئة: "لماذا؟"!

- أنت قلها، لماذا؟! لماذا فعلت ذلك معي؟ هل أنا لست كافية؟!

أغمض عينيه وقد عرف السبب، ثم تكلم قائلًا: "الأمر ليس له علاقة بكِ تقية."

صفعته على وجهه، ثم قالت: "إذن من له علاقة بالأمر؟."

حاول أن يتماسك وقال: "أنتِ زوجة مثالية تقية صدقيني، وأنا مجرد رجل تحركه غرائزه، أرجوكِ إذا أردتِ الانفصال، سأفعل وسأعطيكِ كامل حقوقك، وسأنسى ما حدث منك، لكن أرجوكِ اتركيني أذهب، ستضيعين حياتك لو استمريتِ في هذا الجنون."

قالت بعينين مجنونتين: "هل تريد أن تطلقني بعد كل ما فعلته لأجلك؟."!

هنا انهارت مقاومة زيان وغرق في بكاء يقطع نياط القلوب، وهو يتوسل إليها قائلًا: "أرجوكِ تقية اتركيني، لم يكن هذا خطأي."

صمتت تقية قليلًا ثم قالت بهدوء: "صدقت يا زيان، هذا كله خطأي، أنا من جعلتك إلهي ."

بهدوء أعادت اللاصقة على شفتيه، ثم اقتربت بالزجاجة من ساقه الأخرى، وضغطت على المكبس!

وقفت خلف زجاج النافذة، ترمق السهول الخضراء أسفل جبل دماوند المزين برقعة جليدية بيضاء على قمته، المكان رائع جدا ومناسب للعشاق، هكذا فكرت بابتسامة ساخرة!

هناك دماء تتساقط من الفراش خلفها لتلوث أرض الغرفة، حسنا.. لقد أطالت عذابه على قدر استطاعتها، لكن جسده لم يتحمل ولفظ في النهاية أنفاسه الأخيرة!

بعد أيام، عندما اقتحمت الشرطة الكوخ الخشبي، لم يصدق الضباط هول المشهد على الفراش، حتى أن أحدهم فقد السيطرة على معدته وتقيأ أمام أعين زملائه، بعد شهرين، تم القبض على تقية، عمت الضجة أرجاء البلاد، بينما طالب الجميع برأس تلك الزوجة التي أذابت زوجها حيا!

* * *

لا تعرف كم مر عليها من الوقت وهي تتأمل ابتسامتها في صفحة المياه، كأنها غابت في عالم آخر لعمر بأكمله، في حين أنه لم يمر عليها أكثر من خمس دقائق في هذا الوضع، عندما أفاقت أخيرًا، وجدت أنها لم تكن تنظر إلى ابتسامتها، بل تنظر إلى تلك الشفتين الحمراوتين الممتدتين من الأذن للأذن، قبل أن تبدي رد فعل حركي لتلك المفاجأة، وقبل أن تخطو خطوة إلى الوراء، قفزت تلك المسخ من أسفل المياه لتعتلي تقية في أقل من لحظة، ثم نشبت أنيابها في رقبتها، بينما ظلت عينا تقية تنظران إلى الأعلى في ذهول صامت !

مرت أكثر من عشر دقائق على آسيا في وضعها المنتظر، حتى ساورها القلق فتحركت لتطمئن علي تقية، بعد أن عبرت حزمة الأشجار،

رأتها.. تقية والمسخ! وقبل أن تتراجع إلى الوراء خطوة، وجدتها أمامها مباشرة تحدق بوجهها، ارتجفت آسيا وهي تغمض عينيها وحسبت أنها النهاية، لكنها سمعت من يتحدث داخل عقلها، ليقول بوضوح.. "لماذا لا تبتسمين؟!"، أصدرت الأنثى المتوحشة فحيحًا بالقرب من وجهها، ثم لحظات وابتعدت مسرعة وهي تجر تقية.. وليمتها التي ابتسمت لها!

عاد إليها تنفسها بصعوبة، لا تدري متى تحركت، لا تدري متى ركضت، لا تدري متى وصلت إلى رفيقيها الباقين لتسقط أمامهما فاقدة الوعي!

❁ ❁ ❁

أرض سادسة

بين ظلامين

متى يخفت الضوء؟!

آسيا عز الدين

ميلان ديميتري

كل بضع ثوان تسحب من هذا الهواء، تديره في رئتيك ثم تطرده مرة أخرى، أنفاس تتوالى لتُعلم الجميع أنك مازلت حيًا، نعم.. أنت مازلت حيًا، فلم يقم أحدهم باستخراج شهادة وفاتك بعد. يتعاقب الضوء والظلام يوميًا خارج محيط جسدك لكنك لا تراه، كيف تراه وقد اختبأت في تلك البقعة الحالكة السواد بداخلك؟ !

استكانت بجسدها الضئيل كعصفور صغير بين ذراعي رامو القويتين، في حين واصل هو السير بخطوات أصبحت أبطأ بسبب حمولته فاقدة الوعي، بجواره يسير ميلان يحث الخطى هو أيضًا، تارة

يسبقه وتارة يهدئ من خطواته ليسير بمحازاته، حتى توقفا أمام المدخل الواسع المفضي إلى العالم الأسود بالداخل، وضعها برفق بجوار أحد الأشجار، ثم وقف الرجلان أمام الفوهة المخيفة محاولان اقتحام الظلام بأعينهما لكنهما لم يوفقا، مدخل أي كهف يكون مضيئًا في بدايته ثم يقتحمه الظلام تدريجيًا، لكن اللون الأسود هنا كان عند حدود المدخل بالضبط !

هاجم آسيا دور حمى غريب ومفاجئ، فكانت في شبه غيبوبة، تنام وتستيقظ بعينين زائغتين لتهاجمها الهلاوس كأنها تحتضر، لكن الوقت كان يمر وكان على الرجلين اتخاذ قرارهما، تركها تموت أو حملها والمغادرة بها، وبالطبع اتخذ رامو قراره الثاني، مروا بالمساحات اللونية السبعة حتى وصلوا للمنطقة الأرجوانية الأخيرة، وفي نهايتها وجدوا مدخل ذلك الكهف المفضي إلى اللون الذي تنتهى فيه جميع الألوان.. اللون الأسود، كانا يعرفان أن ذلك الكهف هو المحطة القادمة، وأن عليهما دخوله لمغادرة أرض قوس قزح، لكن آسيا لم يبد عليها أي أعراض للتحسن. قال ميلان: "أعتقد أن هذه هي نهايتها رامو، علينا

التحرك للأمام، نهايتها ونهايتنا ستحين عاجلًا أم آجلا، اتركها تموت هنا بسلام، لا نعرف أي أهوال سنلاقيها بالداخل."

كان كلام ميلان عقلانيًا ومنطقيًا، فالأرض ابتلعتهم واحدًا واحدًا حتى صار عددهم ثلاثة، أي أنه مجرد وقت وسينتهون، بادله رامو بالصمت، ثم نظر إليها وهي راقدة بجوار الشجرة بعينين شبه مفتوحتين، بينما تتحرك شفتاها مغمغمة بكلمات غير مفهومة، تنهد ثم قال: "حسنا.. سأحاول محاولة أخيرة، مثلما أنتجت الأرض الداء ستنتج الدواء، سآخذ جولة سريعة في هذا الحزام الأرجواني علني أجد أي علاج، ربما يكون عشبًا يدرأ تلك الحمى عنها، أنت ستبقى هنا معها حتى أعود، وإذا لم نوفق سنتركها هنا."

هز ميلان رأسه في غير اقتناع، بعدها تحرك رامو عائدًا للداخل، ظل يتحرك ببطء ذهابًا وإيابًا عاقدًا ذراعيه على صدره، منتظر مرور الوقت وعودة رامو خائبًا كما يتوقع، سمع صوتها المنهك يقول: "اتركي الوسادة، اتركي الوسادة."

توقف ونظر إليها بتدقيق ثم اقترب ليجلس بجوارها، وضع يده على جبهتها فوجد أن حرارتها ليست مرتفعة بعكس المتوقع، غمغم قائلًا:

"من الأفضل أن تموتي بهدوء هنا آسيا، أحسدك فأنا أعتقد أن نهايتي ستكون مؤلمة."

نظرت له بعينين زائغتين، ثم عاودت كلماتها المتقطعة: "سقطت، سقطت الزهرة في المياه، أحضرها بسرعة.. آدم."!

تأملها بعينين ثاقبتين ثم قال: "هناك شيء غريب لا أستطيع تفسيره في ملامح وجهك، لكنه مثل الأطفال."!

أغمض عينيه ثم بأصابع مرتعشة قليلًا لمس شفتيها، لينطلق صوت غاضب من خلفه جعله يجفل وينهض بسرعة، كان ذلك هو رامو الذي دفعه للخلف قائلًا: "ما الذي تفعله بالضبط؟."

قال ميلان بارتباك وشبه غضب: "كانت تهذي، وكنت بجوارها أحاول التكلم معها لربما تفيق."!

قال رامو بغضب: "ألن تنسى قذاراتك القديمة أبدًا؟."!

توقف ميلان لوهلة مصدومًا، ثم قال بحدة مرتبكًا: "قذارات؟ عن أي قذارات تتحدث رامو؟."!

أخفض رامو رأسه مغمضًا عينيه، ثم قال متداركًا: "أنا آسف، لقد فقدت أعصابي لوهلة."

-ما بك؟ أمرك غريب جدًا، ثم لماذا تهتم لأمرها لتلك الدرجة؟! هل تحبها؟

تكلم رامو لينهي الحديث قائلًا: "أنا آسف ميلان، انس ما قلته."

أعطاه ميلان ظهره بغضب ثم ابتعد، اقترب رامو من آسيا التي كانت تواصل هذيانها: "أمسك بها آدم."!

ضغط رامو على وجنتيها لتفتح شفتيها قسرًا، ثم اعتصر الكرة الأورجانية الصغيرة التي عاد بها لتنز سائلها داخل جوفها، ثم اقترب من وجهها وهمس في أذنيها قائلًا: "لم تقتليه، لم تقتليه آسيا."

أغمضت آسيا عينيها، ثم بعد دقائق عاودت فتحهما مرة أخرى وبللت شفتيها بلسانها، ثم اعتدلت من رقدتها كأنها أفاقت من غيبوبة طويلة، تراجع رامو إلى الوراء خطوتين لتنهض آسيا وتقف في مواجهته، قالت ببطء: "من أنت؟ كيف عرفت عنه؟ كيف عرفت عن آدم؟."!

-آسيا.. استمعي لما سأقوله جيدًا، أنا لن أواصل الرحلة معكما، هذا الكهف هو محطتكما الأخيرة، أنا متأكد أنك ستعبريها بسلام، لم أكن أريد تركك لكن غير مسموح لي بالولوج إلى تلك المرحلة!

-ما الذي تقوله؟ أنا لا أفهم شيئًا!

اقترب منها ليقول بسرعة: "مهما رأيتِ بالداخل، تيقني أنك ستخرجين وأنك ستنجين بحياتك، عندها سنتقابل مرة أخرى وستفهمين كل شيء، أريدك أن تعرفي أيضًا شيئًا أخيرًا قبل رحيلي..."، تلاقت أعينهما في حين اقترب هو منها أكثر، ثم قال: "لم أحب امرأة سواكِ."

في أقل من اللحظة وقبل أن تدرك، ألصق شفتيه بشفتيها في قبلة لم تأخذ أكثر من ثوان معدودة لكنها بدت كالدهر عليهما، وعندما ابتعدت آسيا لم تجده أمامها!

في نفس اللحظة اقترب ميلان ليفاجأ بها واقفة في كامل وعيها وعلى وجهها نظرات الدهشة التي لم تقل عن دهشته هو لرؤيتها سليمة، قال بتعجب: "كيف؟ وأين رامو؟"!

قالت والذهول لم يبرحها بعد: "لقد رحل."!

* * *

على بُعد أيام من العام الجديد، ارتدت المنازل والشوارع حلتها البيضاء كعروس في ليلة زفافها، بينما توزعت في الشوارع أشجار السرو،

التي تزينت بالمصابيح الصغيرة وحلوى القصب والهدايا، احتفالا بأعياد الكريسماس، كانت الشمس على وشك المغيب على تلك القرية بمدينة شالسكاي في روسيا الاتحادية، بينما اندمج ذلك الطفل الأصهب ذو الثماني سنوات في اللعب بالكرات الثلجية مع أقرانه باستمتاع حقيقي، فعطلة الكريسماس بالنسبة له أفضل أحداث العام، يتمنى أمنياته الخاصة من سانتا كلوز، ويجمع الهدايا من والديه وأقربائه الذين يأتون من المدينة بأطفالهم لقضاء العطلة بين أحضان الريف، لتمر عدة أيام من البهجة الخالصة، نعم.. كان الكريسماس يحمل الكثير من المفاجآت السارة لميلان، لكن كريسماس ذلك العام حمل له حدثًا ثقيلًا، كان بداية الطريق الذي أوصله إلى تلك الهاوية العميقة.

بخطوات متحمسة ركض ميلان إلى داخل المنزل، تاركًا أقرانه بالخارج، ليريهم مجراف الثلج الذي اشتراه والده له الكريسماس الفائت، والذي استخدمه لتشكيل العديد من رجال الثلج ذوي الأنوف المدببة، كان البيت دافئًا من الداخل، اتجه إلى غرفته وبحث كثيرًا لكنه فشل في

العثور عليه، عندها قصد والدته التي كانت تقف في المطبخ، مع زوجة عمه وخالته يحضرن العشاء.

-أمي.. أين مجراف الثلج؟

-ألم تجده في غرفتك ميلان؟

-لا.

-ابحث عنه في القبو بالأسفل.

استدار عائدًا مارًا بالطرقة والصالة ذات الأرائك المريحة، حيث كان عمه ديفيد الشاب الذي أتم عامه العشرين متكئًا على إحداها في استرخاء، نظر إليه شذرًا وواصل طريقه، لم يكن العم ديفيد من الأقارب المفضلين لميلان، من النادر أن يراه بكامل وعيه حيث يحمل الزجاجة إياها معه أغلب الوقت، كما يبدو كالشيطان بسبب كل ذلك السواد أسفل عينيه!

وصل ميلان للباب وقام بمعالجة المزلاج ثم دلف إلى الداخل، غير عابئ بذلك الشاب ذي الهالات السوداء الذي نهض من رقدته بعينين لمعتا بعد خمول، إثر الرغبة النى استبدت به عندما رأى الصغير!

نظر حوله، البيت فارغ إلا من النسوة المنشغلات في المطبخ، لذلك دون تردد تحرك في أعقاب الصغير، كان ميلو -كما تناديه أمه- منهمكًا في البحث، فلم ينتبه إلى أن باب القبو أُغلق من ورائه بهدوء، كان الجو باردًا في القبو، حيث لا يصله نظام التدفئة مثل باقي المنزل، لكن وبالرغم من البرودة بالأسفل، وجد ميلان جسدًا ساخنًا يلتصق به من الخلف!

* * *

على ظهرها رقدت ترمق السقف، الذي لا تتبين تفاصيله -التي تحفظها ظهرًا عن قلب- بسبب الظلام!

الباب مغلق من دونها، والستائر مسدلة على جميع النوافذ، فلا تسمح بدخول أي بصيص نور، أيام عديدة مرت عليها في الأرق حتى قاربت الشهر، وهي مازالت على هذا الحال، بينما سلكت جميع الطرق لاستقطاب ذلك العنيد، منع الكافيينات، تعاطي المهدئات، ثم اللجوء إلى الظلام المطبق لربما ينقلها إلى ظلام آخر، لكن تلك المحاولات باءت بالفشل وها هي، فراشها يغلي من أسفلها فلا تكاد تستقر على موضع،

طرقات على الباب، ثم سمعت من ؤ يدخل هذا في نطاق الرضا وحمد الرب، إيمانها ضعيف هذا هو رأي الآخرين فيها، جمال طفولي رقيق، وظيفة مرموقة في شركة كبيرة ومعروفة، زوج من الطبقة الأرستقراطية يهيم بها حبًا، طفل رائع الجمال نسخة صغيرة في الشكل عنها، بيت فخم في أرقى مناطق الإسكندرية لا يفصله عن الأزرق المالح سوى مسافة رملية محدودة، إذن لماذا رحلت السعادة عن عالمها؟! لماذا استوطنت الوحشة والخواء الرهيب قلبها؟! لماذا قسمت وقتها بين عملها وبيتها وبين التردد على الأطباء النفسيين، الذين شخصوا حالتها على أنها اكتئاب حاد دونما اقتناع، لأنهم لم يضعوا أيديهم على تلك الفجوة بداخلها التي أوصلتها لتلك الحالة؟ !

استسلمت للظلام دون أن تدري، لتفتح عينيها فجأة على ضوء الشروق!

لم تصدق أن وعيها غاب عنها، حتى لو لم يغب أكثر من ساعة، لكن الظلام الذي كللت به الغرفة نجح في أن يجتذب وعيها أخيرًا، خرجت من الغرفة لتعرج على غرفة الصغير، ألقت عليه نظرة حانية ثم غادرته لتبدأ روتينها الثابت اليومي، فطور فتجهيز نفسها للعمل وآدم

للمدرسة، لكن قبل ذلك تمارس عادتها الصباحية المحببة.. الركض، والذي يأخذ من وقتها ساعة يوميًا من بعد الشروق، ارتدت حلتها وحذاءها الرياضيين، وضعت سماعات أذنيها ثم انطلقت خارجًا بموازاة الـشاطئ.

شيئان يوقظان في قلبها الحياة.. آدم والركض، زادت من وتيرة خطواتها المتسارعة ثم أبطأت بالتدريج عندما لمحته قادمًا، يفعل نفس الشيء الذي تفعله، إنه وليد زميلها في العمل!

* * *

تلمست أيديهما الجدار وهما يتوغلان إلى الداخل، فالجدار عينهما الآن التي تتولى إرشادهما في ظل هذا الظلام المطبق، الذي لم يخف ذرة حتى بعد أن تعودت أعينهما عليه، واصلا الخطى الخائفة المرتعشة لفترة لا يدركان هل هي قصيرة أم طويلة، بعدها توقفت آسيا فجأة وقالت: "توقف ميلان أرجوك."

أوقف ميلان السير وتلمس الحائط حتى لامس يدها، ثم قال: "ماذا هناك؟."

قالت بلهجة مرتعشة: "هذا الظلام لا نهاية له، أريد أن نعود."

قال ميلان: "لا عودة إلى الوراء، انظرى إلى الخلف، لا يوجد ذرة ضوء من الخارج، لقد أُغلق وراؤنا باب الرجوع."

- أنا خائفة.

-وأنا أرتعد من الخوف، لكن لا طريق آخر أمامنا غير مواصلة السير.

-حسنًا.. أريد أن أرتاح من المسير قليلًا.

جلسا في مكانهما مستندين إلى الجدار ومتقاربين إلى حد كبير، الصمت والظلام يكتنفهما وإحساس أكيد تسلل إليهما، بأنهما ليسا وحيدين، لكن بالرغم من ذلك الشعور المشترك لم يبح أحدهما للآخر عن الأمر، قالت آسيا لتقطع الصمت: "لقد رأينا الكثير، لكن تلك أول مرة يتمكن مني الخوف هكذا"!

أتاها صوت ميلان قائلًا: "إنها سلطة الظلام، لقد كان لي تجربة معه فيما مضى."

-هذا هو الحال معي أيضًا!

-انتهاء المطاف بنا في هذا الظلام له علاقة بماضينا، تلك الأرض تعرف جيدًا ما تفعله !

تزايد شعورهما بأنهما ليسا وحيدين فاقتربا من بعضهما أكثر، وازدادا التصاقا بالجدار، قالت آسيا وهي تكاد تنصهر في الجدار من الخوف: "ما هو ماضيك ميلان؟ .!"

* * *

كانت الضربة التي حددت معالم تلك الصخرة إلى الأبد، لم يبح بالأمر لأي مخلوق، فتلك الحادثة هي وصمة عاره، أضف إلى هذا أن شعوره تعدى شعور الضحية، ليوهم نفسه أنه بالتأكيد شخص سيىء وسيذهب للجحيم، الذي حدثهم عنه قس الكنيسة في أيام الآحاد.

بعد الحادثة.. انزوى ميلان في عالمه الخاص، كما عانى من فشل دراسي متكرر لذلك لم يدخل الجامعة بل توقف عند المرحلة التي قبلها، الواقع أن والديه لم يلوماه على تعثره الدراسي، لأنهم قرويون ولا يمانعون أن يُكمل مسيرة والده في أعمال الزراعة، أو النجارة التي يشتغل بها في ورشتهم المجاورة للمنزل، فقط كان انطواؤه وعزلته يؤلمان

والدته، التي كانت تحاول التقرب منه والتودد إليه، لتطلع على خفايا روحه، ولتعرف سر هذا الألم المختبئ وراء لجتي عينيه.

" -انظر أمامك أيها المنحرف!".. ألقاها أحد زملائه المتنمرين بالمدرسة، ثم أعقبها بمد ساقه لعرقلة ميلان الذي كان يسير شاردًا كعادته الأبدية، وكانت النتيجة سقوطه على وجهه بشكل مذرٍ أمام زملائه، لتلتقط أذناه بعض الضحكات الساخرة، لكنه لم يبد أي ردة فعل، فقط لملم كتبه التي تبعثرت على الأرض وواصل طريقه، بالرغم من الأصوات التي تصاعدت من خلفه.. "خنزير جبان!"

كان ذلك هو عام ميلان الأخير في الدراسة، ودع بعده كل ما يمت للتعليم بصلة، بخطوات ثابتة خرج من بوابة المدرسة، ليسمع صوتًا رقيقًا يناديه: "ميلان.. انتظر."

استدار إلى الشقراء، والشخص الوحيد الذي يبدي به اهتمامًا خارج نطاق أسرته، قالت بعد أن أصبحت بمحاذاته: "ميلان.. لا تعبأ بهؤلاء الأغبياء."

قال بهدوء مواصلًا سيره: "ومنذ متى أنا أهتم بهم؟."!

قالت وهي تواصل الخطى بجواره: "معك حق.. كلها بضعة أشهر وسنغادر كل هذا الهراء إلى الجامعة، أتمنى أن ألتحق بجامعة موسكو، أريد أن أخرج من الريف."

-أنتِ فتاة جيدة سارة وستحققين كل أحلامك.

-وأنت ميلان، تستحق ما هو أفضل، أي جامعة تريد الالتحاق بها؟

لم يخبرها أنه ينوي ترك الدراسة وأنه ليس لديه أي طموح، ليتجنب الدخول معها في نقاش عن الأمر، واصلا سيرهما البطئ بأحاديث قليلة، معظمها جرت على لسان سارة، لأنه قليل الكلام، حتى لاح منزلها في الأفق فودعته بابتسامة عريضة.

المسافة من المدرسة إلى منزله ليست بالقليلة، وكان من الأفضل له أن يستقل الحافلة، لكنه كان يحب أن يأخذها سيرًا على الأقدام وأحيانا ركضًا، كان الطريق شبه خال من البشر، يغطيه اللون الأبيض، وتقف أشجار الصنوبر على جانبيه كشواهد صامتة.

بعدما وصل ميلان لسن البلوغ، لم يكن قد اختبر قدارته الذكورية مثل باقي أقرانه، سواء بالعلاقات مع الفتيات أو تلك العادة التي يدمنها

الصبية، بل ظلت تلك المنطقة مغطاة بالظلال في داخله، فقط تزوره الرؤى في المنام من وقت لآخر، لكنه عندما كان يستيقظ بعدها مبتلًا، وبالرغم من عدم وضوح تفاصيل الحلم، فإن كل ما كان يتذكره هو ذلك الشعور العارم وتلك الحادثة في القبو، حيث كانت تقفز إلى عقله، فيربطها تلقائيًا بذلك الشعور، هنا كان مكمن أزمته وربما لو كان لجأ هو إلى أي اختصاصي نفسي لكانت الأمور اتخذت منحنى آخر، لكن كتمان الأمر بداخله وتعظيمه بالشعور بالذنب، جعل تلك الحادثة تتسلم قيادة حياة ميلان كلها.

كان يواصل الركض في طريقه إلى المنزل، شاردًا يفكر في كل شيء، عندما وجد في ذلك الطريق الخالي طفلًا في عمر السادسة تقريبًا، يسير في الاتجاه المقابل باكيًا، يبدو أنه ضل الطريق، هنا ودون أن يشعر وجد نفسه يبطئ الخطى، ليقترب منه ويمسك بكتفه قائلًا بلهجة مرتعشة: "هل فقدت الطريق يا صغيري؟"!

- "افتح الباب ميلان!".. توالى نداء والدة ميلان مصحوبًا بطرقاتها العنيفة على باب الحمام، كانت جالسة تشاهد التلفاز، عندما رأته يدخل المنزل وهو يرتجف، ثم صعد ركضًا إلى غرفته غير مبالٍ

بنداءات أمه من خلفه، التي أصابها القلق عند رؤيته على تلك الحال، تواصلت الطرقات على الباب، التي اختلطت أصواتها بصوت ميلان الباكي المرتجف بالداخل: "لقد صنعت ميلان آخر، لقد صنعت ميلان آخر."!

بعد دقائق، صعد الأب على أصوات الصراخ والطرقات، انكسر الباب تحت وطأة دفعات جسد الأب الضخم، اندفع الوالدان داخل الحمام بخطى مذعورة، انفلتت صرخة من الأم رغمًا عنها عندما رأت الدماء على أرضية الحمام!

* * *

- "سنتناول غداءنا سويًا بعد العمل"، قالها وليد بعدما دلف إلى مكتبها، بلهجة من لا يريد جدالًا في الأمر، همت بالكلام لكنه نظر إليها نظرة متوسلة وآمرة في نفس الوقت، جعلها تبتلع كلماتها المعترضة، بينما اقترب أكثر منها وفي عينيه نظرة حالمة!

نهضت بسرعة من خلف المكتب وتقدمت ناحيته وهي تقول: "وليد.. أرجوك ليس هنا"، جذبها إليه فلم تستطع المقاومة، وفي نفس

اللحظة دلف سليم زميلهما في الشركة إلى مكتبها، لينهي بعض الأوراق، فابتعدا بسرعة، لكن سليم كان أسرع منهما في ملاحظة الأمر، شبح ابتسامة ممزوجة بسخرية غزا شفتيه، رغما عنه وبالرغم من محاولته التعامل بشكل طبيعي، بعد أن أنهى الأوراق معها، انصرف ثم تبعه وليد بلامبالاة، لكنه قبل أن يغادر استدار ليهمس بتصميم: "سأراكِ."

في ذلك المطعم الراقي المطل على الكورنيش، جلس الاثنان متقاربان بينما أطبقت يده على يدها بقوة، قالت وهي تحاول فك يدها من الحصار: "وليد.. عليك التعامل بحذر أكثر معي، لا أريد أن تتناثر الأحاديث عنا."

قال بشبه سخرية: "هل تريدين أن تقنعيني أن علاقتنا سرية؟، الشركة كلها تعلم بالأمر."!

قالت ببرود: "أنا لا آبه بهم، أنا فقط لا أريد أن يصل ذلك الأمر إلى هشام."

قال وليد بجدية: "هذا ما كنت أود التحدث به آسيا، عليكِ أن تأخذي قرارك بسرعة."

-أي قرار؟

-أن تنفصلي عن هشام حتى نتزوج!

انفلتت ضحكة خافتة رغما عنها، لكنها جعلت عيني وليد تشتعلان، ثم قالت: "هل تريد أن تتزوجني؟"!

- ماذا تريدين أنتِ آسيا؟ أنا لا أفهمك، عندما حاولت التقرب منكِ لم تمانعي، إذن ما الذي يدور في عقلك؟!

-كنت أريد صديقًا و...

قاطعها بغضب: "صديق؟! هل تصدقين هذه الكلمة حقا؟ سأتحدث بصراحة.. بالنسبة إليّ أريد أن أحصل عليكِ، سواء بالزواج أو حتى من غيره، الآن أريد أن أعرف موقعي بداخلك، ولا تكرري كلمة صديق أرجوكِ، فتعاملنا أبعد ما يكون عن كلمة الصداقة."

نظرت لبعيد وهي تقول: "لن تفهم ما بداخلي."!

-ماذا تريدين بالضبط؟ أنا لن أستمر في علاقة غير واضحة المعالم.

-لماذا لا تبقى الأمور كما هي؟!

-هل تريدين الاستمرار بين رجلين؟!

صمت قليلًا ليدرس الكلمة، التي تتوارى بداخله ويريد أن يقولها، لكنه لم يأخذ وقتًا كبيرًا، فقد ألقاها بجرأة: "لا مانع عندي، فقط أعطيني ما تعطيه لزوجك."

نظرت له بخواء حقيقي، فعاود إلقاء كلماته المسمومة: "لا توهميني أنكِ امرأة بريئة، أنتِ تريدين ما أريد، لكن يبدو أنك تريدين المزيد من المحاولات مني."

بعد صمت آخر، قالت: "كم أحسدك لأن الأمور بداخلك سطحية وبسيطة."!

- سطحية؟! إذن اشرحي لي الأمور أيتها الفيلسوفة!

قالت وهي تمسك بحقيبتها استعدادا للمغادرة: "فلننه هذا الحوار وليد، لست في مزاج رائق، أعطني الوقت وسأعطيك ما تريد."

قادت سيارتها بسرعة أكبر من المسموح بها في شوارع المدينة الفاتنة، كأن هناك من يطاردها، حتى وصلت إلى بوابة الفيلا التي سارع البواب لفتحها، فعبرت المدخل بسرعة جنونية، جعلت البواب يضرب كفيه

تعجبًا، وبمجرد أن أوقفتها وترجلت منها، سارعت إلى دخول الفيلا وارتقاء السلالم ركضًا، حتى أصبحت على أعتاب غرفته.. غرفة آدم .

دخلت ببطء فوجدته منهمكًا في ألعابه الحاسوبية، ابتسمت له واقتربت لتحتضنه بقوة، فقال متذمرًا: "أمي.. سأخسر اللعبة."

قبّلته على وجنته بعنف وهي تقول: "افتقدتك جدًا."

-إذن لماذا تتركيني كثيرًا؟

عاودت احتضانه وهي تقول: "لن أفعلها مجددًا، أعدك."

وضعته على فراشه ولم تتركه حتى سلَّم نفسه للنوم، دخلت المربية الغرفة فأشارت إليها أنها أدت مهمتها وتستطيع الانصراف، رقدت على جانبها الأيمن تتأمله، وتمسح بيدها على خصلات شعره الناعمة البنية، انتبهت على زوجها وهو يدخل الغرفة، فنهضت من رقدتها مستقبلة إياه، اقترب منها وعانقها عناقًا طويلًا، انسحبت في آخره بلطف، قال لها ممسكًا بذقنها: "ألن تعودي إلى غرفتنا؟."

فقالت وهي تهرب بعينيها: "لقد نمت الليلتين الفائتتين، في الأولى ساعة وفي الثانية ثلاث ساعات، الظلام الشديد يساعدني، صمتت ونظرت له متابعة الحديث: "والوحدة أيضًا."

تغيرت معالم وجهه وابتعد عنها ثم قال وهو يغادرها: "سأتركك حتى تستعيدين نومك الهارب، وبعدها سيكون لنا حديث آخر"، وقفت في مكانها واجمة، ثم تحركت في اتجاه غرفتها المظلمة، وهي تقول في داخلها.. (لماذا يود الجميع الحديث اليوم؟.(!

في الظلام، رقدت ترمق السقف بعينين لا تريان، لم كل هذا الانطفاء؟

هي لا تشعر بشيء مطلقًا، فقط غربة لا متناهية تفصلها عن الجميع، تعرف أن الجميع يحكم عليها بأنها مدللة، تريد أن تعيش دور الثرية المكتئبة، التي تتردد على العيادات النفسية كما في الأفلام، لو ألقوا نظرة على ما في داخلها، لعرفوا أنها تعيش دورًا آخر عجيبًا، كأنها كائن فضائي، رست مركبته على كوكب الأرض ولا يستطيع التأقلم مع سكانه!

نعم.. هذا هو الوصف الأدق لمشاعرها، أنا لا أنتمى إلى هنا!

وليد كان مجرد محاولة لإشعال فتيل الحياة بداخلها، فهناك شغف ينمو بداخل الإنسان، عندما يرتكب شيئًا ممنوعًا ومحرمًا! علاقتها به لم

تصل إلى ارتكاب الذنب الأعظم، لكنها بالتأكيد علاقة خاطئة، بالرغم من ذلك، قداحة وليد التي ظنت أنها ربما تُشعل شيئًا بداخلها، اكتشفت أنها لا تعمل، وهكذا أُضيف عليها عبء آخر.. كيف ستنسحب من حياته بعد أن تعلق بها بطريقة جنونية؟! فلا تستبعد أن يقوم بإيذائها أو إيذاء آدم للانتقام منها!

دوامة بدأت تظهر وسط الأمواج لتبتلعها، بدأت ببعض المشاعر السلبية، ثم أُضيف لها الخواء والاختناق بداخلها، لتتسع أكثر وأكثر، أصبحت تتقلب على الفراش بسرعة أكبر من المعتاد،تغادر الظلام.. تذهب إلى غرفة آدم.. تعود إلى الظلام.. تتقلب على الفراش.. تغادر الظلام.. تلقي نظرة على آدم.. ثم تعود وهكذا دواليك، في تلك اللحظات، بدا أن دوائر مخها الكهربية انصهرت تمامًا، لذلك ودون تفكير.. امتدت يدها في الظلام للسكين الموضوع على الكومود!

* * *

فتحا أعينهما تلك المرة على ضوء فوسفوري أخضر يغمر الأجواء، بالنسبة للشخص الطبيعي، لن يكون هذا الضوء مريحًا أبدًا للعينين،

لكن في حالتهما، كان كأنه ضوء الشمس الساطعة بعد أن تذوقا مرارة الظلمة، نهضا غير مستندين إلى الجدران تلك المرة، الجدران التي بدا أنها مصدر الضوء الغريب، كأنها تشع من الداخل!

تواصلت الخطى ما بين سير وهرولة وركض، على أمل الخروج قبل هجوم الظلمة مرة أخرى، لكن الأمر بدا كأنه يفضي إلى اللانهاية، فقط جدران صخرية لا تنتهي، في النهاية، جلسا يلهثان بعد أن احترقت كل جزيئات الطاقة في خلاياهما، قال ميلان وهو ينظر حوله: "لا أمل في الخروج من هنا، لقد أخطأنا بالدخول، أتساءل لو كان هذا المتحذلق معنا كيف كان سيتصرف؟."!

تتطايرت دقتان من قلبها، عندما تذكرت رامو ولحظاتها الأخيرة معها، ترى أين هو الآن؟!

انتزعها من شرودها اللحظي، صوت ميلان وهو يقول بلهجة خائفة: "آسيا.. انظري إلى الأعلى!"، رفعت رأسها ببطء، كأنها تخشى من سقوط شيء فوق رأسها، فاصطدمت عيناها بتلك الكائنات المعلقة بالسقف، قال ميلان: "تبدو مثل الخفافيش بأجنحتها الملتفة على

أجسادها تلك، لكن أحجامها كبيرة جدًا بالنسبة لخفافيش"، قشعريرة انتابتهما معا، عندما تخيلا ماذا يحدث في الظلام، عندما تستيقظ تلك الكائنات العملاقة، أخفضا ناظريهما هروبا من المشهد المخيف بالأعلى، ليكتنفهما صمت مترقب، زاغت نظرات ميلان في شرود، بعدها توقفت لتقترب متفحصة معصم آسيا الذي ظهرت عليه بعض الخطوط البنية المشعة، رفع يده وهو يشير إلى معصمها قائلًا: "ما هذه العلامات؟."!

انتبهت آسيا ونظرت إلى حيث أشار، فوجدت ذلك اللون البني المشع مستقرًا على معصمها، كما انتبهت أن ميلان أيضا لديه نفس البقعة على معصمه!

-أنت أيضا، توجد لديك هذه العلامات!

تلاقت نظراتهما وقد تذكرا شيئًا مشتركًا، جمعهما دون أن يدروا، قال ميلان بعد هنيهة: "هل حاولتِ الانتحار فيما مضى؟ ."!

نظرت إلى بعيد ولم تعقب على سؤاله، فواصل كلامه قائلًا: "يبدو أن هناك شيئًا جمعنا فيما مضى، الرغبة في الموت."

قالت بهدوء: "كان فيما مضى رغبة للهروب، الآن هو رفاهية لا نستطيع الحصول عليها ."

نظر إلى وجهها متأملًا وقال: "عندما أنظر إلى ملامحك الطفولية تلك أتعجب، كيف ارتكبتِ جريمتك؟."!

-هل تريد حقًا الحديث عن هذا الأمر؟

-اجعلي الوقت يمر بالحديث آسيا، لقد بدأ العد التنازلي لنهاية واحد منا، قولي لي ما الجريمة التي تتوقعين أني ارتكبتها فيما مضى؟ !

نظرت له بشرود ثم قالت: "هل قتلت؟ ."!

ضحك بخفوت ثم قال: "القتل هو جريمتنا جميعًا، السؤال هنا من قتلت؟."!

توقفا عن الحديث عندما لاحظا أن الضوء قد بدأ يخفت نسبيًا، قالت آسيا برعب: "الظلام سيعود، يبدو أن الجدران تشع نتيجة لضوء الشمس بالخارج، وعندما تغيب سنغرق مجددًا في تلك العتمة."

قال ميلان متجاهلًا ملحوظتها الصائبة عن الظلمة: "كنت مراهقًا عندما فعلتها لأول مرة."!

-فعلت ماذا؟!

قال وهو ينظر حوله، إذ بدأ الظلام يعود بقوة: "عندما صنعت ميلان آخر."

* * *

هبت نسمات خريفية ناعمة، حاملة عبقًا يثير قشعريرة ناعمة في الأجساد، ومبعثرة أوراق الأشجار المتساقطة بلونيها الأصفر والبرتقالي، بينما أخذ ميلان يحرك مكنسته يمينًا ويسارًا لتنظيف باحة المدرسة منها، رحلة زمنية أخذت من عمره ست سنوات، مذ وجده والداه غارقًا في دمائه على أرضية الحمام في محاولة لم تنجح للانتحار، ست سنوات تعاقبت بعد تلك الحادثة، كان يعيش فيها على حافة العالم، يراقبه، انقطع عن الدراسة وابتعد عن الجميع، كما أن حياته في الريف أججت عزلته أكثر وأكثر، الست سنوات مضت كيوم واحد يتكرر، ما بين النوم وتناول الوجبات ومساعدة الأب في ورشته أو في أعماله الزراعية، ست سنوات لم يحدث فيها أي حدث جديد مما يقلب الأمور أو يغير مجرى حياة، أما عن النوم فقد احتل حوالي نصف يومه تقريبًا، أي أن الست سنوات قضى نصفهم في غياهب النوم وبين ردهات عقله الباطن. سير بطئ وممل للحياة بينما ظللها من علٍ صورة الطفل الصغير الذي هتك براءته ميلان ذلك اليوم، دائما هو هناك، يراقبه بتعابير باكية صامتة لم

تغادر عقله أبدا، وبعد أن انتهت الست سنوات، استيقظ ذلك اليوم ليقرر خوض الحياة مرة أخرى، أيا يكن الطريقة التي سيعيش بها!

ودع والديه في الريف وانتقل إلى المدينة، حيث اتخذ سكنًا ضيقًا لا يتجاوز مساحته الغرفة والحمام، كان والده يدفع له أجرته الشهرية لحين عثوره على عمل، وبعد جهد مضني وبحث محموم تسلم وظيفته أخيرًا كعامل نظافة في مدرسة ابتدائية!

هل كان الأمر قدريًا أم مقصود؟!

أن يقترب إلى هذا الحد من منبع عقدته وموطن الظلام بداخله، هل أعمى القدر عن عينيه كل فرص العمل الأخرى، أم هو بنفسه كان يبحث عن عمل يجعله على مقربة من فرائسه؟!

الحقيقة أنه لا يدري بالضبط، لكن مرور الأيام عليه في ذلك العمل وتنقله بين أروقة الحديقة والملعب والفصول للتنظيف، وعيونه التي ازدادت مراقبتها للصغار وهم يروحون ويجيئون، جعلت الأمر يصبح أكيدًا بداخله، لقد انتهى ميلان القديم للأبد، ونهض مكانه أسوأ أنواع

الذئاب البشرية التي يمكن أن تقابلها في حياتك، إن هو إلا وقت يمر وسيحين موعد القنص، وقد كان صبورًا حتى تلك اللحظة!

مايكل الصغير دائمًا وحيد .

مايكل الصغير يبكي كثيرًا.

مايكل الصغير دائمًا يجلس في ذلك الركن من الحديقة، في وقت الاستراحة ليبتعد عن المتنمرين، مايكل الصغير التقطته عينا الصقر ليتنهد في نهم، بالتدريج اقترب منه متلطفًا معه كأنه صديق بخلت عليه الحياة بواحد مثله، بالتدريج أصبح هو صديقه الوحيد، وعندما آن الوقت، عرض عليه صديقه الكبير مغامرة صغيرة خلف أسوار المدرسة في وقت الاستراحة، وقد كان !

* * *

اصطفت الأمواج المتلاطمة الواحدة تلو الأخرى، كقمم تلال صغيرة تتفتت إلى ملايين الأجزاء عندما تصطدم بالشاطئ، النهار في لحظاته الأخيرة، والرياح تواصل هبوبها، مضفيان اعتدالًا رائعًا في هذا

الطقس الصيفي الخانق، هناك على تلك الرمال جلس آدم ليبني قصره الخاص بيديه العاريتين، الحقيقة أنه قد لفت الأنظار حوله، فما صنعته يداه كان دقيقًا ومبهرًا، فلا تصدق أنه خرج من بين يدي طفل بالكاد بلغ عامه الخامس، تأملته آسيا وهي جالسة على مقعدها في وضع أقرب للنوم، عبقرية آدم بدأت في الظهور باكرًا جدًا، مذ التحق بالروضة ومدرسوه ينقلون لها ملاحظاتهم المنبهرة بتفوقه الفذ في كل شيء، كأنه يسبق عمره بكثير، كما تلقت العديد من النصائح بأن عليها أن تسلك مسلكًا مختلفًا في التعليم، ليتناسب وقدراته المتطورة بسرعة، لم تكن تشعر فقط أنها غريبة عن هذا العالم بل وابنها أيضًا !

بعد أن انتهى، نهض من جلسته عائدًا إلى أمه دون فخر كبير،عن التجمهر الصغير الذي تجمع حول قصره الرملي، قال لها وهو يغيب بين ذراعيها: "أمي، هيا نرحل من هنا."

-لم تريد الرحيل حبيبي؟

-أريد الابتعاد عنهم، لا أحب الزحام.

كانت قد اعتادت من آدم على حبه للعزلة، وهذا يبدو غريبًا جدًا بالنسبة للأطفال، حيث أقصى أمانيهم الرفقة واللعب، اهتز هاتفها

فرفعته أمام ناظرها لتجده وليد، تنهدت بضيق ولوم واضح لنفسها، بعد أن نقلها زوجها للمستشفى ذلك اليوم، زارها وليد مع زملائها في العمل، والمجنون لم يحاول إخفاء أي شيء!

الأمر بدا مكشوفًا جدا أمام الجميع، لكن هشام ليس بالرجل المتهور الذي يفقد أعصابه بسهولة، فهو يدرس كل خطوة قبل أن يُقدم عليها، وقد ابتلع غيظه وتعامل بلباقة أمام الجميع، بعد أن تعافت، وبالرغم من أنه أصر على متابعة جلساتها مع الطبيب النفسي، وبالرغم من أنها تركت العمل، إلا أنه تغير معها كثيرًا، أضف إلى المشهد الذي رآه في المستشفى، أنه بالتأكيد قد تطوع أحدهم وأخبره عن الأمر .

نهضت آسيا وأخذت بيد آدم لمغادرة الشاطئ، وبينما كانت أقدامهما تغوص في الرمال وهما يتجهان إلى السيارة، اصطدم بها أحدهم عن طريق الخطأ، كلمة اعتذار سريعة منه وواصل طريقه، فلم تنتبه له آسيا وأكملت خطاها، اتخذت وضع القيادة وبدأت في التحرك، عندما رأت في المرآة الجانبية، هذا الرجل واقفًا ينظر إليهما بثبات، رجل ثلاثيني، حليق الرأس، بملامح دقيقة وعينين فيهما نسبة من الحول!

* * *

" -توقف عن الحديث ميلان"، قالتها باشمئزاز، وهي تضع يديها على أذنيها في الظلام، قال بضيق: "كلنا مجرمون هنا، أم ستدَّعين البراءة الآن؟"!

قالت بضيق: "لا أطيق سماع صوتك الآن، أغلق فمك."

صمت على مضض وهو يقترب أكثر من الجدار، وعندما لمس يدها في الظلام عن طريق الخطأ، صرخت قائلة: "ابتعد عني."!

قال بضيق: "توقفي عن التذمر."

أمسك بحقيبته ليعبث فيها، عله يجد أي فاكهة مما كانوا يجمعونها، بعد أن أنَّت معدته من الجوع، لكن يده اصطدمت بشيء آخر! معدني، في حجم الإصبع لم يتبين ما هو بسبب الظلام، لكنه سرعان ما عرف كنهه، فعندما ضغط إصبعه على أعلى الشيء دون قصد انطلقت الشرارة النارية الأولى!

لم يأخذ الأمر أكثر من ثوان معدودة، فقد ارتفع إصبعه تلقائيًا لتنطفئ الشرارة وليعود الظلام، في حين علا صراخهما والتصاقهما، دون

حتى أن تعترض آسيا، فما رأوه على ضوء اللهب الخاطف، كاد أن يوقف قلبيهما من الرعب!

هناك في الظلام، كانت قابعة في أماكنها، في وضع بين الجلوس والوقوف، تملأ أرض الكهف كأنه جيش جرار، والمخيف أن تلك الكائنات بأنيابها اللامعة كانت ملتصقة بهما!

عندما أشعل ميلان الضوء شعر بذلك الشيء الحاد كالنصل يخترق يده الممسكة بالقداحة، وعندما انطفأ عاد الهدوء في الظلام مرة أخرى، وهكذا ظل الاثنان ملتصقين بالجدار تلك الليلة، دون حتى أن تخرج منهما همسة عابرة!

عندما عاد الضوء الأخضر مرة أخرى، كان الاثنان قد تيبست عظامهما وجف حلقاهما من الخوف، بصعوبة ابتعدا عن الجدران، وارتميا على الأرض يلهثان وهما ينظران إلى الأعلى، حيث عادت المسوخ إلى أوضاعها المعلقة المقلوبة على السقف! ظلا على هذه الحال لفترة لا بأس بها من الوقت، بعدها نهضا ببطء ليواصلا المسير، كانا يسيران

كالموتى الأحياء بمشيتهم المترنحة، لم يدخل الزاد جوفيهما منذ فترة، ولا يوجد أي وقود يحرقانه لمتابعة الرحلة لكنهما لم يملكا غير المتابعة.

دون قصد، كان ميلان يلامسها من وقت لآخر أثناء المسير، فكانت تنتفض غاضبة، فبالرغم من هول ما هم فيه إلا أنها لم تستطع أن تطرد عن عقلها اعترافاته الرهيبة.

فاض الكيل بميلان، عندما أبعدته بشدة عنها تلك المرة، لتسقطه على الأرض، عندها نهض بغضب وبقوة لا يدري من أين أتت، وألصق ظهرها بالجدار حتى أنَّت من الألم، قالت من بين أسنانها: "اتركني أيها الحقير."!

تكلم بصوت كالفحيح، وهو يعتصر وجهها بيديه: "أنتِ غريبة جدًا آسيا، تعرفين وجهك مثل هؤلاء الأطفال الذي."...

قاطعته وهي تصرخ: "اخرس ميلان."!

قال بغضب: "حسنا.. سأعلمك كيف تُكملين الرحلة معى دون ضجيج."

ثم مد يديه بالقوة ليُخلعها رداءها، في حين واصلت هي الصراخ!

رقدت على الأرض دون حراك، غير مصدقة لما حدث في الدقائق الفائتة، ألا يكفي هذا الجحيم الذي سقطت فيه؟ وجحيم ماضيها الذي لا يفارقها؟ هل كل هذا لا يكفي حتى يضاف إليه اغتصابها بتلك الطريقة الوحشية؟ أخذتها نوبة من الصراخ الباكي، لقد خاصمتها دموعها منذ زمن كبير، فلم تكن تستطيع البكاء، لكن قناتها الدمعية تلك المرة لم تتحمل كل هذا الضغط الواقع على كاهلها، ففاضت بمائها المالح، الحقيقة أن ميلان لم يكن بحال أفضل منها، فقد التصق بالجدران وهو يرتجف، يبدو أنه لم يكن بوعيه في تلك الدقائق، هو لا يريد أن يُكمل المسير وحيدًا ومكروهًا، هو يلعن الحياة التي وضعته في خانة الشرير المغتصب دون رغبة حقيقية منه بذلك، وفوق كل هذا، تعجب من أين أتته القوة لفعل ذلك وهو يسير بالكاد، بعد أن توقف صراخها وساد الصمت، تكلم بلهجة مرتجفة: "لم أكن بوعيي، صدقيني، شيء ما هنا في هذا المكان الملعون جعلني أفعل ذلك بل وأعطاني القوة أيضًا."!

كانت توليه ظهرها في تلك اللحظات، سمعها تغمغم بكلمات مختنقة باكية لم يتبينها، سألها: "ما الذي تقولينه؟."!

نهضت جالسة كأنها فقدت عقلها فجأة، ثم صرخت في وجهه قائلة: "لقد قتلت طفلي.. لقد قتلت آدم."!

* * *

محمل بسلة مشتريات صغيرة، تجول في الماركت لابتياع بعض المؤن التي يحتاجها في سكنه، لقد مضت أيام لم يخرج فيها من غرفته ولم ير الشارع، بعد أن انتشر النذير في الأجواء بعد اختفاء طفلين من المدرسة التي يعمل بها، بل وتم تعليق الدراسة لمدة شهر بسبب ذعر الأهالي. لم تتوقف الشرطة عن البحث والاستقصاء منذ اختفاء الطفلين، لكن الضباب لم ينقشع بعد عن مكانهما أو المصير الذي لقياه، شخص وحيد في هذا العالم يعرف ماذا حدث، شخص وحيد يعرف البقعة التي توارى تحتها جسدا الطفلين للأبد، شخص وحيد يتجول الآن في طرقات الماركت لابتياع بعض المؤن التي تنقصه!

توقف أمام الصراف الذي كان يتابع الشاشة المعلقة، التي تنقل بعض الأخبار المحلية بشرود، حتى أنه لم ينتبه إلى ميلان المنتظر أمام

الماكينة، عندما أتى النبأ الخاص بالطفلين تنهد مغمغمًا: "لن تنتهي القذارة من هذا العالم، سنذهب كلنا للجحيم."!

انتبه إلى ميلان، الذي صُرفت أنظاره هو أيضا إلى الشاشة وقال: "آسف.. يبدو أنني أوقفتك كثيرًا."

قال ميلان بخفوت: "لا بأس."

قال الصراف بحزن وهو يشير إلى صورة مايكل التي تربعت الشاشة: "أعرف عائلة هذا الفتى، إنهم يمرون بوقت عصيب، أعتقد أنهم لم يتذوقوا النوم منذ الحادثة، فليرحمهم الرب ."

قال ميلان بنبرة موافقة: "نعم بالتأكيد، لكن الشرطة لم تتوصل إلى سبب اختفائهم بعد، ربما مازالوا على قيد الحياة."!

-إنه أسوأ من الموت يا بني، عندما يأتي الموت نفجع لكننا نسلِّم به في النهاية، أما هذا الأمر فهو العذاب المقيم.

-فلنبقى متفائلين ولندعو الرب أن يكونا سالمين ولم يمسهما أذى.

- أنا أثق بالرب، لكني لا أثق بالبشر، لقد رأيت الكثير من الشر في هذا العالم، لقد ازداد عددهم بيننا بدرجة مخيفة!

- من هم؟!

-هؤلاء المنحرفون الجنسيون، المهووسون بالأطفال، أقذر شرائح بشرية يمكن أن تقابلها في حياتك، المخيف أنهم يبدون أناس طبيعيون، لقد رأيت الشرطة تقتحم شقة جاري الذي أعرفه منذ أعوام، رجل لطيف المعشر وهادئ لكنه منطوي قليلًا، هل تتخيل صدمتنا بعدما عرفنا أنه واحد من هؤلاء الذئاب، ليت الشيطان يكون مسخًا قبيحًا نستطيع أن نميزه، إنه بيننا.. نراه ونتعامل معه كل يوم، لكننا أبدًا لا نتعرف إليه!

ابتلع ميلان ريقه وأشاح بنظره ولم يعقب، عندما ناوله الصراف كيسه وباقي نقوده قائلًا: "آسف بني، أطلت عليك في الحديث، فليحفظك الله."

سارع ميلان وزميله إلى إنهاء تنظيف الممرات والفصول باكرًا قبل قدوم الطلاب، فاليوم قررت إدارة المدرسة استئناف جدولها الدراسي، مثل باقي المدارس، وبالطبع زادت من احتياطاتها الأمنية تحسبًا وكذلك

باقي المدارس في البلدة، بعد مايكل -صيده الأول في المدرسة- بدا أن الذئب بداخله لم يكتف بل أراد المزيد، فنال صيده الثاني بعد أسبوعين فقط دون حتى أن يأخذ واجب الحذر من اكتشاف أمره، فلقد تولت الشهوة بداخله قيادة تصرفاته تمامًا، لكن بعد ضحيته الثانية واشتعال الأجواء أكثر، استيقظ عقل ميلان لدراسة الوضع، بالطبع قرر أن يترك المدرسة، ليتابع الصيد في أماكن أخرى، لكن بما أن الشكوك حتى تلك اللحظة لم تقترب منه، فلا داعي أبدًا لأن يثيرها ناحيته، فقط تهدأ الأجواء وعندها سيختفي تمامًا، اتجه إلى الحديقة والملعب لمباشرة إعدادهما بعد أن تراكمت عليهما الأوراق، أمسك بمكنسته وبدأ يطوح بها بروتينية يمينًا ويسارًا، عندما بدأت الندف الثلجية الأولى لهذا الشتاء في التساقط، نظر إلى الأعلى مستقبلًا السماء بعينيه، لطالما كان الهطول الأول للجليد مصدر سعادة بالنسبة إليه، الآن تلامس الندف جلد وجهه، دون أن يتسلل ذلك الإحساس إلى داخله، فلم يعد أي شيء قادرًا على إيقاظ ذلك الكائن الرقيق القديم.

تجاهل الندف التي ازداد هطولها وشرع في تكملة مهام عمله، عندما سمع الضجيج آتيًا من الخلف! استدار ليرى سر تلك الجلبة فالوقت مازال باكرًا على حضور الطلاب، الهطول يزداد والضجيج يزداد أيضًا، أسقط مكنسته لا إراديا عندما رأى الجمع الغاضب المتجه ناحيته، بعد دقيقة، سقط هو أيضًا بجوارها، أسفل الركلات المجنونة، التي كادت أن تفتك به في أول صباح مثلج لشتاء هذا العام!

* * *

" -هذه هي النهاية آسيا، لن أستطيع أن أواصل الحياة بهذا الشكل"، قالها هشام وهو يتأمل أصابع يده، الخالية من الحلقة المعدنية التي ربطته بها في يوم من الأيام، التزمت آسيا الصمت بعينين لم تندهشا كثيرًا لهذا القرار، الذي رأت أنه تأخر كثيرًا، هي لا تلومه ولم تفعل يومًا، تعرف أنها المسؤولة عن هذا الصدع، ولأنها لم تشعر بانجذاب تجاه أي رجل آخر فلم تطلب هي الطلاق، فمادامت تشعر بالغربة وسط الجميع والأمر سيان، فلماذا تُبعد آدم عن والده، وتحرمه من فرصة أن ينمو في أسرة طبيعية؟ لكن هشام من رفع راية الانسحاب، واصل حديثه قائلًا:

"بالطبع سنحافظ على علاقة قوامها الود والاحترام من أجل آدم، أعرف جميع حقوقك وستنالينها بالكامل."

تنهدت قائلة: "لا أشك في ذلك، لطالما كنت كريمًا معي يا هشام، وأنا لا ألومك على أي شيء."

شملهما الصمت مرة أخرى، هناك أسر تأخذ أعوامًا في المشاحنات والمنازعات حتى تضع كلمة الانفصال، وهناك أسر لا يأخذها الأمر أكثر من حديث ببضع كلمات لينتهي كل شيء، فقط بهذه البساطة ودون جدال انتهى كل شيء، استأذن هشام وغادرها متجهًا إلى غرفة نومه، بينما نهضت هي بخطوات ثقيلة ناحية غرفة آدم، وقفت أمام فراشه تتأمله بحزن بينما بدأت دوامة صغيرة في الدوران بأعماقها، إلى متى ستستمر تلك الوحشة؟ حتى طفلها يشعر بالغربة عن الجميع!

عادت إلى غرفتها وأغلقت الباب من دونها لتعود إلى الظلام، الفراش الذي لا يحتوي جسدها النائم أكثر من ساعة أو ساعتين يوميًا بالأكثر، السقف الذي لم تكف عن التحديق بتفاصيله، الجسد الذي يتخذ جميع الأوضاع الممكنة وغير الممكنة فيزيائيًا في الدقيقة الواحدة

لاستقطاب النوم، بلا فائدة، لقد صارت كل هذه المفردات مملة رتيبة كالكابوس الذي لا ينتهي، الغصة في الحلق تسده كأنها تقسمه إلى جزئين، الدموع المتجمدة تفكر في الانصهار استسلامًا لنيران الوحشة المشتعلة بداخلها، صدرها يعلو ويهبط بينما بدأت تنشج نشيجًا خافتًا، الأمر أكبر من الطلاق تعرف هذا وتجزم به، لم تستطع أن تُكمل ليلتها تلك في الظلام فالدوامة أصبحت كالثقب الأسود الذي ستتبخر بداخله .

دلفت إلى غرفة آدم وجلست على المقعد المقابل لفراشه، لتنقل نظراتها بينه وبين السقف كعادتها العتيدة، بينما انسلت الدقائق متتالية لتحملها إلى منطقة الشفق، إلى قبيل غروب وعيها بعيدًا، كانت تحملق في السقف، عندما رأت تلك الدوائر الثلاثة المتداخلة المضيئة، نهضت ببطء مثبتة ناظريها على تلك البقعة المضيئة، واقتربت أكثر من فراش الصغير الذي تركزت الدوائر المضيئة في السقف أعلاه، ثم عندما خفضت بصرها إليه.. إلى الصغير النائم، رأت ذلك الشيء على جبهته، لم تكن

الدوائر الثلاثة المضيئة مصدرها السقف، ولكنها كانت المركز الذي صبت عليه الأشعة القادمة من جبهته.. جبهة آدم!

لمست أسفل عنقها بيدها وتسارعت أنفاسها بذعر، وهي تحدق بذلك الوشم المضئ المشع بجبهة الصغير، كانت الوسادة ملقاة على بطن الصغير، اقتربت منه أكثر وأمسكت بالوسادة لتبعدها، ثم مرت لحظات وفتحت عينيها من جديد!

عندما استعادت آسيا الموجودات من حولها مرة أخرى، لم تكن جالسة على المقعد، كانت واقفة بجوار الفراش ممسكة بالوسادة في يدها، وعلى هذا المشهد بالضبط، دلف هشام إلى الغرفة بسرعة مذعورًا وهي تنظر له بدهشة، أبعدها بعنف لتسقط على الأرض، رأته وهو يصرخ محاولًا إيقاظ آدم الذي لا تعرف لماذا ظل نائمًا بالرغم من كل هذه الضوضاء! ما الذي يحدث؟! لماذا لا يستيقظ آدم؟! لماذا يصرخ هشام وهو يحتضن جسد الصغير باكيًا؟! لقد توقف الزمان عند تلك اللحظات، وبدا أنه يعيد المشهد مرة تلو الأخرى، ظلت ملقاة على الأرض في جمود، عندما رأت هشام يترك جسد الصغير على الفراش،

ويتجه ناحيتها بعينين مشتعلتين وهو يصرخ: "أيتها القاتلة!"، كان ذلك عندما سقط فجأة على الأرض فاقدًا للوعي، كأنه تلقى ضربة على رأسه من مهاجم خفي، بعدها تبعته آسيا إلى عالم اللاوعي!

* * *

رحلة مسير أخرى، وسط الضوء الفوسفوري الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، لم يكن الصمت رفيقهما الوحيد تلك المرة، فلقد صاحبهما الكثير من الرفاق.. الكراهية، البغض، العداوة، الرغبة في الانتقام، كانا يسيران متباعدين قليلًا، فرغما عنهما طريقهما واحد ولا مهرب لأي منهما من الآخر، آسيا وقد فاض بها الألم الجسدي والنفسي، ليُغرق ذلك الكهف البغيض، كم تتمنى أن يقتلع أحدهم قلبها الآن، حتى أنها لا تتمنى حياة بعد موتتها الأولى، فقط تريد أن تكون تلك هي النهاية، في صميمها تعرف أنها ستموت لا محالة، وأن رامو هذا، ربما يكون أحد أوهام تلك الجزيرة، تمثل لهم جميعًا ليقود كل واحد فيهم إلى محطته الأخيرة، لكنها الآن متيقنة من شيء آخر إضافي، أن تلك المحطة

ليست محطتها، هي محطة ميلان، تجزم بذلك، لأنها تعرف أن نهايته أصبحت قريبة جدًا، وستكون على يديها!

لن تنتقم لنفسها فقط، بل ستنتقم لهؤلاء الصغار الذين اُنتهكت براءتهم دون ذنب، لا تعرف كيف ستفعلها، لكنها متيقنة أن الكهف سيهديها إلى السبيل، كما أعطى ميلان القوة ليفعل فعلته بها!

توقفت عن المسير بعد أن أصبح الظلام قاب قوسين أو أدنى، جلست ملتصقة بالجدار بينما تبعها ميلان وجلس على مقربة منها، في الضوء الخافت، رأت تلك العلامة البنية التي ارتسمت على طول يده، قال لها بعد أن رآها تنظر ليده المجروحة: "إنها مخالبهم، يبدو أنها لا تتحمل الضوء."!

نظرت إليه باحتقار وعدائية واضحة، ثم أشاحت بعينيها بعيدًا، الحيوان لا يريد أن يلتزم الصمت أبدًا حتى بعد ما فعله، نهض مبتعدًا، فتبعته بعينين غائمتين وحانقتين، يبدو أنه ذهب ليفرغ مثانته قبل حلول الظلام، أمسكت بحقيبته الصغيرة وامتدت يدها لتعبث داخلها حتى

لمست القطعة المعدنية صاحبة الوهج، أعادت الحقيبة إلى موضعها، بينما اشتدت قبضتها على القداحة، إذن كيف ستفعلها؟

أسندت رأسها على الجدار وأغمضت مفكرة، تعرف أنه سيمدها بالإجابة، فتحت عينيها وأبعدت رأسها، بينما تلمست شعيراتها التي كانت ملاصقة للجدار لتجمعها بحركة تلقائية، فوجدت أنها مليئة بذرات التراب، تحسست الجدار بيدها لتحركها يمينًا ويسارًا، فوجدت التراب يتفكك بسهولة من الجدار، حتى أنها كونت حفنة جيدة فقط ببعض الضربات الخفيفة عليه. شعرت بالقطعة الحديدية داخل يدها تهتز، أمسكت بها، نظرت حولها وأعلاها، مازالت الكائنات هناك بالأعلى تستعد للاستيقاظ، وميلان مازال يلبي نداء الطبيعة، لذا اقتربت بالقداحة من حفنة الرمال، ثم ضغطت بإصبعها على المكبس لتنطلق الشعلة الصغيرة المتوهجة!

انكمشا التصاقًا بالجدار في الظلام، لولا ذلك القبس المتوهج، لتخيلا أن كل ماهنالك هو الظلام ولمضت ليلتهم بسلام، هكذا هي المعرفة، ندفع ثمنها غاليًا، ونحسد هؤلاء الذين يحيون في نعيم الجهل!

الخوف تلك الليلة كان أقل نسبيًا بالنسبة لميلان، فمادام في وضعه المنكمش وبعيدًا عن أي مصدر للضوء، فلن تؤذيه تلك الكائنات، لكن الوضع بالنسبة لآسيا كان مختلفًا!

بعد صمت لم يقطعه إلا صوت أنفاسهما، تكلمت آسيا قائلة: "قل لي ميلان، لو استعدت حياتك الآن، وعدت إلى عالمنا الذي جئنا منه، هل ستواصل ما كنت تفعله؟."

قال بنبرة شبه ساخرة: "هل تعتقدين أن هذا الأمر يتوقف على قرار أتخذه بكامل إرادتي، أفعل أو لا أفعل؟! ألم تشعري يومًا أن هناك قوة بداخلك تتولى قيادة حياتك، بينما تقفين عاجزة أمام طغيانها الكاسح؟ وأنك مجرد أداة في يد تلك القوة؟ "!

- إذن ألم تندم على أي شيء؟!

- لم أعد أفكر في تلك الأمور.. الضمير، الخير، الشر، الصواب، الخطأ، كلها مفردات غابت تمامًا عن عالمي.

-ألا تخشى الجحيم؟! ألا تخشى أن يعاقبك الله؟!

-لقد تركني الرب آسيا، تركني لعمي في ذلك القبو ولم ينقذني، لقد ضللت عن طريقه منذ زمن بعيد.

-حسنا، أنا لن أحكم عليك، لكنك الآن ستذهب لمحاكمتك العادلة!

فجأة وجد ميلان نفسه غارقًا في الرمال التي جمعتها آسيا في حقيبتها، ثم في اللحظة التي تلتها، انطلقت الشعلة التي تلقفتها الرمال سريعًا لينطلق الجحيم من عقاله!

مم الخوف تلك المرة؟! من الظلام، أم من تلك الكائنات المختبئة بداخله، والتي كانت تصطدم بهم وهي تركض مبتعدة عن البقعة المشتعلة، أم من صراخ ميلان وهو يتلوى من النيران، ومن عشرات الأنصال التي اخترقت جسده غضبًا من انتهاك حرمة الظلام؟!

هل تتخيلون كيف هو الركض وسط الزحام؟ زحام ليس كأي زحام، هول لم ينقذها منه إلا سقوطها فاقدة الوعي وسط الحشد المخيف!

* * *

كعادتها العتيدة، رقدت على ظهرها ترمق السقف البعيد، لكنها تلك المرة لم تكن تنظر إلى تفاصيله الجبسية المنمقة، كانت تنظر إلى المئات من تلك الكائنات الملتفة حول نفسها كالخفافيش، مازال صراخ ميلان يدوي في أذنيها، كانت ميتة بشعة، لكن هل هي متأكدة أنه قد مات؟! عندما ورد إليها الخاطر نهضت بسرعة لتنظر إلى الخلف، ارتجافة شملت جسدها عندما رأته واقفًا على بعد وجلده محروق تماما، أصدرت صرخة رعب وأطلقت لساقيها العنان، وعندما ابتعدت ونظرت مرة أخرى كان قد اختفى! لم تتوقف عن الركض، سيكون كابوسًا أن تظل حبيسة هنا، بلا طعام أو شراب بل ويطاردها شبح ميلان الذي قتلته، عندها ستقتل نفسها بنفس الطريقة لتستريح.

واصلت المسير وهي تستند إلى الجدار، والضوء الأخضر قد بدأ رحلة الغروب المخيفة، ولا يوجد أي أمل للخروج، إذا كان الكهف هو محطة ميلان، فلماذا لم يظهر طريق الخروج؟! خطوتان إضافيتان وتوقفت فجأة وهي تحدق في ذلك الشيء الذي قضى على كل ذرة أمل بداخلها!

لقد انتهى الطريق عند تلك النقطة، انتهى بذلك الجدار الصخري القاسي المتعرج الممتد إلى السقف!

* * *

أسفل المياه، لم يتوقف الوهج عن إصدار الومضات المرتعشة، الوهج الصادر من جهتين أولاهما.. الدوائر الثلاثة بجبهتها، وثانيهما تلك الزنبقة البيضاء، هناك وجه أسمر وسيم لكنه قاسي الملامح ينظر من أعلى المياه، الرمال تملأ الشاطئ وثيابها أيضًا، كعادتها العتيدة ترقد على ظهرها متأملة السقف السماوي العظيم، وعندما تلتفت برأسها تراه برأسه الحليق وملامحه الدقيقة ودوائره المتوهجة! عندما تعاود النظر إلى الأعلى، تجد أن السقف السماوي محجوب عن ناظريها، بذلك الرأس الصغير ذي الشعيرات البنية الناعمة، الذي امتدت ذراعا صاحبه لتحتضن رأسها برقة، لتحتويه ذراعاها بقوة أكبر، فلم تشعر به وهو يتملص ويحاول الانفلات. لا تعرف مم أتتها تلك القوة، ظلت تعتصره دون أن تدري وعندما اعتدلت لتريح الجسد الصغير على الرمال،

وجدته ينظر إلى الأعلى شاخص البصر، لتعم صرخة مدوية في الـشاطئ باسمه... آاااادم!

طيور النورس يدوي صراخها المزعج، تنظر إلى الأعلى لتجد الأقمار الثلاثة المضيئة، تنظر خلفها لتجد الغوريلا البشرية تلتهم جسد تشاي لي برضا، في حين يرقد هو مبتسمًا! تسمع صرخة إيبو تجلجل الأجواء، يبدو أن الشجرة لم تفرغ منه بعد! تركض لكن خطواتها بطيئة متعثرة، تنظر إلى يمينها، فتجد النهر الدموي الذي طفا على سطحه رأس بلال، بينما تحللت أعضاؤه بالأسفل! تفاجأ ببقعة مزهرة بيضاء تصدر بتلاتها وميضًا، لكنها عندما حركت السيقان يمينًا وشمالًا ونظرت إلى الأسفل وجدت وجه أونغ مازال مبتسمًا! الركض والركض والركض، حتى وجدت تقية واقفة تنظر لها من بعيد وفي أبهى حلتها بينما لطخت وجهها بأصباغ مبالغ فيها، لكن عندما اقتربت منها أكثر، لاحظت شيئًا عجيبًا، كيف تمتد شفتاها من الأذن للأذن؟!!

الأرض أسفلها رطبة، رطبة جدًا، حتى أنها غاصت فيها حتى الركبتين، فشلت حركتها تمامًا، بينما وجدت هذا المسخ المحروق يقترب

منها ببطء، لكن الأرض ابتلعتها لأسفل، لتسقط في هوة عميقة القرار، وقبل أن يلتقط القاع جسدها، أمسكت بها تلك اليد االقوية، الذي يطل صاحبها من الأعلى بملامحه الدقيقة ورأسه الحليق، وارتمى على وجهها شعاع ضوئي من وشمه المتوهج!

تململت في رقدتها وأخذت تتقلب يمينًا وشمالًا، حتى أجبرها الضوء الساطع المسلط على عينيها المغلقتين على النهوض، فيما غطت وجهها بيدها، جلست لثوان مضيقة عينيها تتأملان الموجودات من حولها، مازالت على أرض الكهف، لكن بلا ظلام وبلا ضوء أخضر مما يرهق العينين، فقط ذلك الشعاع الضوئي الساطع القادم من الفوهة أعلى الجدار، الذي تلمسته لتعرف كيف هو طريق الصعود!

كانت الشمس في أوج سطوعها، وقد بدا قرصها كبيرًا من ذلك الارتفاع بينما توسط تلك السحب البيضاء المهيبة، بصعوبة حشرت جسدها في الفوهة، حتى خرجت منها أخيرًا، تلفتت حولها كالمجنونة، لقد كانت على قمة جبلية، وعندما اقتربت من الحافة ونظرت إلى الأسفل.. استطاعت أن ترى الـشاطئ الذي كانت ترسو سفينتهم على

مقربة منه! من موضعها، استطاعت أن ترى الجزيرة كاملة، لكنها كانت بعيدة كل البعد عما رأوه فيها! لقد كانت كلها عبارة عن مساحة ممتدة من الرمال الزرقاء، لا أشجار بثمار كريستالية، لا غابة خيزرانية متوهجة، لا منطقة مغبرة متربة من الأشجار المفترسة، لا جليد تنبض أسفله الحياة، لا نهر دموي، لا أرض بيضاء مزهرة، لا أرض قوس قزح!

هرولت لتنظر من جميع الاتجاهات، فتأكدت أكثر أنه لا يوجد أي معالم حياة بالأسفل، نظرت إلى الشمس التي بدت كبيرة جدًا، وإلى السحب التي كانت تستطيع تلمسها من هذا الارتفاع، ثم أخذت تقترب من الحافة وتوقفت على بعد إنش منها، تلمست أسفل عنقها واهتز جسدها بضحكة، بدأت خافتة ثم أخذت تتصاعد تدريجيًا، لتملأ الأجواء الصامتة ضحكة طويلة حانقة معترضة مجنونة.. أين أنا؟! دمعت عيناها وهي تنظر إلى الأسفل، هبت الرياح لتعبث بشعيراتها القصيرة البنية، توقف الضحك، أغمضت العينين، لتعبر بعدها الإنش الذي يفصلها عن الهاوية!

❁ ❁ ❁

أرض أخرى

فوق البشر!

عندما توهجت البتلات البيضاء!

رامو ودوبا!

الشمس في طريقها للمغيب مبعثرة أشعتها الباقية على الأرجاء، ومكونة شفق دموي يخلب الأبصار، الأقمار الثلاثة كانت واضحة أيضًا، وإن اتخذ كل منها شكلًا نصف دائريًا، وبدا وهجهم الفضي خافتًا في ظل حضور أشعة الشمس، حتى وإن كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، كما توزعت السحب في غير انتظام لتُكمل تلك اللوحة السماوية الخلابة، كان ذلك المشهد الذي التقطته عيناها عندما استعادت وعيها مرة أخرى، بيد أنها تلك المرة عندما عاد إدراكها بالموجودات أصدرت صوتًا متبرمًا، لقد اكتفت تمامًا، ألن تنتهي تلك الرحلة أبدًا؟!

نهضت متأملة الأجواء من حولها، هناك على مقربة منها تقبع تلك الدرجات الحجرية، وعندما وقفت على أول درجة منها، استطاعت تبين

ذلك السلم الذي تهبط درجاته في طريق ثعباني وملتوي، كما استطاعت أن تتبين أيضًا معالم مدينة كاملة تقع بالأسفل !

طرق ممهدة، أبراج شاهقة ومتطورة، يتوسطها مبنى عملاق متخذًا شكل الأقمار الثلاثة، سيارات لم تر مثلها يومًا، منها ما يسير على الأرض، ومنها ما يحلق!

إذن هذه هي المحطة الأخيرة للقطار! كل ما عليها الآن هو لملمة أشيائها ومغادرته، وقد كان، فبعد دقائق قليلة من هبوط الدرجات الحجرية، وجدت أنها في رحاب المدينة.. في رحاب الحياة.. في رحاب البشر!

لكن هل هم بشر حقا؟! الرجال كلهم حليقو الرؤوس، أما عن النساء فشعورهم لا تتجاوز منابت رقابهن، نعم بشر لكن الملامح دقيقة وبها شيء غير آدمي بالمرة، الكل يرتدي ملابس راقية نظيفة كأنهم علية علية القوم، أضف إلى هذا أن الوشم المرسوم على جباه الجميع كان متوهجًا!

بينما كانت تواصل خطاها داخل المدينة وهي تنظر حولها بانبهار، لم تلحظ أنها أيضًا محط الأنظار ممن قابلوها، بردائها الأحمر وهيئتها المزرية كأنها خرجت لتوها من القبر، لكنها عندما سارت بمحاذاة أحد المتاجر بواجهاتها الزجاجية، توقفت وقد أصابها الذعر من انعكاسها في الزجاج، تبدو كأحد الموتى الأحياء! لكن ما لفت نظرها أكثر أن الوشم على جبهتها كان متوهجًا، لكن بخفوت وبدرجة أقل سطوعًا من وشومهم! همت بالابتعاد عندما التقطت أذنيها صوتًا معدنيًا من الخلف، وعندما استدارت وجدته أحد الروبوتات المعدنية الذي اتخذ شكلًا شبه بشري، أصابها الخوف قليلًا في حين تكلم الصوت الآلي قائلًا: "أستطيع أن أساعدك سيدتي؟."

لم تستطع الرد كأن لسانها قد التصق بسقف حلقها، فانحنى الروبوت قليلًا وهو يدعوها إلى الدخول، تقدمت بخطوات مرتبكة لتدخل المتجر ثم تبعها الآلي، أشار بذراعه إلى أحد المقاعد في دعوة منه لأن تتفضل بالجلوس ثم دلف إلى الداخل ليغيب قليلًا، الحقيقة أن رأسها لم يتوقف عن الالتفات يمينًا ويسارًا لتفحص المتجر، الذي بدا أنه للملابس

النسائية، بعد قليل، أتاها الروبوت حاملًا واحدًا منها! نهضت لتقول ببطء: "لا أملك المال."!

توقف كأنه يدرس الجملة التي تفوهت بها، ثم قال: "عذرا سيدتي، ما هو المال؟."!

لم تتوقف لتناقشه كثيرًا، أخذت الرداء في حين أشار هو إلى أحد الغرف بالداخل، أمام المرآة وفي أقل من دقيقة كان رداؤها الأحمر على الأرض، وقفت لثوان ترمق جسدها الذي برزت نتوئاته العظمية أكثر، الآن هي تحتاج أكثر من الثياب، تحتاج المياه، تحتاج الطعام، تحتاج مكانا تبيت فيه، ارتدت ثيابها الجديدة التي اندهشت من ملائمتها لجسدها تمامًا، بالرغم من حالة النحول التي أصابتها، مسحت وجهها بيديها وخلخلت شعرها بأصابعها لتنفضه، جسدها يحتاج حمامًا دافئًا وبشدة! غادرت الغرفة وشكرت الآلي الذي بُرمج على أن يكون ودودًا خدومًا، بعدها خرجت من المتجر لتلتحم مع الجموع وإن بدت تلك المرة -إلى حد ما- منهم !

لم تبتعد كثيرًا، حيث توقفت تلك المرة أمام مبتغاها الذي تنشده.. فندق الزهرة البيضاء!

هكذا علت اللافتة المعدنية واجهته، إذا كانت الملابس مجانية، فبالتأكيد سيكون المبيت مجانيًا، هكذا فكرت ببساطة، بالرغم من أنها لم تكن متأكدة تمامًا من الطريقة التي ستطلب بها غرفة، لكن الآلي الواقف في ردهة الاستقبال وفر عليها الكثير من التردد، فبمجرد أن رآها لم يختلف تصرفه عن تصرف الآخر في المتجر، انحنى باحترام ثم ثوان وأعطاها بطاقة، يبدو أنها مفتاح الغرفة كتب عليها رقمها وموقعها بالضبط. في النهاية، لم تصدق عندما أغلق الباب دونها لأول مرة، منذ وقت مر كالدهر عليها، كل ما مضى بدا كالكابوس المرير، حتى أنها عندما انتهى بها المطاف في تلك الغرفة النظيفة المريحة، ظنت أن كل ما مرت به هو وهم!

هناك الكثير والكثير من الأسئلة بخلدها الآن، لكنها أجلت كل شيء وأسرعت لدخول الحمام. نزعت رداءها الجديد، ثم تركت المياه الدافئة تتخلل جسدها بينما أغمضت عينيها بنهم. لا تدري متى أطفأت

المياه، متى خرجت من الحمام، متى أراحت جسدها على الفراش، متى أغلقت عينيها لتغرق في سنة نوم جعلت جسدها يتنهد أخيرًا من الراحة، عندما فتحت عينيها مرة أخرى وجدت ذراعين سمراوتين ممسكتين بوسادة، ما لبثت أن هبطت على وجهها لتكتم أنفاسها! أصدرت صرخة ونهضت بذعر، لكنها لم تجد أحدًا، فتشت أرجاء غرفتها جيدًا لكن بلا جدوى، يبدو أنه مجرد كابوس، تنهدت مغمضة عيناها وواضعة يدها على صدرها، الذي تسارعت الدقات بداخله، ثم تخلل أذنيها أصوات دقات أخرى.. قادمة من الباب! اقتربت ببطء ثم امتدت يدها -دون حذر كاف- لترى القادم، بعينين متسعتين وقفت ترمق القادم بذهول.. لقد كان رامو!

* * *

-يمكنك أن تنظري إلينا على أننا نتاج طفرة حدثت لبني البشر، طفرة انفصلت وتكاثرت وكونت سلالتها الخاصة، أو يمكن أن تنظري إلينا على أننا مرحلة متقدمة ناتجة عن التطور والانتخاب الطبيعي للكائنات الحية، أو ربما نكون جنس فوق البشر! حيث الإنسان لا يعتلي

هرم الكائنات الحية كما يظن! فلربما نحن قمة الهرم! أو لربما هناك قمم أخرى فوقنا. الحقيقة أنني لا أعرف، فمثلما اجتهد الإنسان ليكتشف بداياته، نحن أيضًا اجتهدنا ولا أزعم أننا عرفنا كل شيء عن هذا الكون الشاسع الذي نعيش فيه.

-جسمانيًا نبدو مثلهم تمامًا، لكن الاختلاف كله يكمن هنا.. في العقل! فعقولنا أكثر تطورًا وذكاءً بمراحل، ونتفاوت في تلك القدرات الذهنية فمنا من يملك القدرة على التخاطر ومنا من يمتلك القدرة على تحريك الأشياء، ومنا من يملك القدرة على التنبؤ بالمستقبل هذا بالإضافة أننا جميعًا بارعون في تلك العلوم التي أوجدها الإنسان على الأرض، وتخطينا المستويات التي توصلوا إليها بكثير، نعيش على تلك الجزيرة في بعد موازٍ لأرض البشر، لكن أرضنا في هذا البعد، لا يوجد عليها حياة خارج نطاق جزيرتنا، أعدادنا تزيد وسيأتي اليوم الذي سنضطر فيه إلى مغادرة الجزيرة، الحقيقة أن الأرض العامرة بالبشر، قد نال منها الخراب والفساد والتلوث، هي ليست ملائمة لجنسنا، لكنها

الحل الوحيد، ونحن لن نستطيع أن نعيش مع البشر لأنهم جهلاء ومدمرون، نستطيع أن نفنيهم في غضون شهر لا أكثر، لكن الحقيقة أنهم في طريقهم للفناء وبأيديهم.

-القوى العظمى بالأرض تعلم بأمرنا ويعلمون أنهم خاسرون الحرب لا محالة، لذلك فقد عقدنا الاتفاقيات ذات المصالح المشتركة، ومنها اتفاقية المبعدين، هنا في تلك الجزيرة، عقولنا جميعا متصلة لتكون عقلًا جمعيا لجنسنا، هذا العقل الجمعي، وهو آلة ذكية تشبه الحاسوب، تقع بمبنى الأقمار الثلاثة بوسط الجزيرة، وهو يتطور كل دقيقة من ملايين التجارب والخبرات التي يمر بها كل واحد فينا، هذه هي نقطة تفوقنا العظمى لذلك ترين الأوشام المتوهجة والتي تربطنا جميعًا، تنص اتفاقية المبعدين على نفي كل المحكوم عليهم بالإعدام في عالم البشر إلى تلك الجزيرة، حيث يتم ربط عقولهم بعقلنا الجمعي، تجاربهم المظلمة في حيواتهم، وتفاعل عقولهم مع الأخطار التي يواجهونها تمثل إضافة قيمة لعقلنا الجمعي، تلك الأرض العجيبة التي كنا فيها مع الآخرين هي

أرض الاختبارات، حيث يتداخل الوهم والحقيقة، حيث الأرض حية.. تدرس ما بداخلنا لتخرج لنا كل تلك الأهوال التي رأيناها، بينما العقل الجمعي هناك في وسط المدينة ينضج ويتطور بفعل كل ما يحدث عليها.

التزمت الصمت أمام سيل المفاجآت المتدفقة من لسان رامو، الذي كانت تلتمع عينيه بحزن خفي، بعدها تكلمت قائلة: "لماذا بقيت أنا؟ وإذا كنت بشرية كيف...؟."

توقفت عن الحديث، كانت تتذكر جملته الأخيرة.. "لم أحب امرأة سواكِ"، كيف حدث هذا؟! قطع حبل أفكارها قائلًا: "أنتِ مننا آسيا، أو أستطيع أن أقولها الآن.. دوبا."

-دوبا؟

-أنتِ لستِ بشرية، أنتِ من جنسنا، وأنا صديقك الوحيد !

صمتت بينما استحثته عيناها على مواصلة الحديث، فتكلم بعد هنيهة: "قلت لكِ إن كل واحد منا له قدراته العقلية الخاصة والتي تبدأ في الظهور بعد البلوغ وتتطور أكثر وأكثر مع مرور السنوات، كما أن نسلنا يكون أكثر تطورًا منا، لديَّ القدرة على التخاطر، لكن ليس مع الجميع،

فهناك من يملكون القدرة على غلق عقولهم أمام المتخاطرين وأنتِ واحدة منهم، أما عن عقل زوجك فقد كان مفتوحًا كقلب صديق أمامي."

-هشام؟!

-لا.. داي!

-من داي؟!

-لقد تعرضتِ لمؤامرة لا أعرف سببها، فلقد اختفيتِ بعد أول يوم من زواجك بـ "داي"، وتم محو بيانات عقلك تمامًا من العقل الجمعي، فصرتِ كأنكِ لم توجدي يومًا، لقد تم محو وجودك من عقول الجميع، إلا عقلي أنا!

-عندما قابلته ذلك اليوم، لم نتحدث لكني قرأت في عينيه ما حدث، وعرفت أنه أبعدك إلى عالم البشر لسبب لم أستطع الوصول إليه، داي ذو درجة عليا بيننا، فهو يمتلك قدرة خاصة بالتنبؤ بالمستقبل، يوجد الكثيرون منا يملكون هذه الموهبة، لكنها متفاوتة القوة، وبالنسبة لـ "داي" يبدو أنه وصل إلى مستوى متقدم جدًا في دقة نبؤاته، هذا

بالإضافة إلى وظيفته العليا في مجلس الحكم، مجلس الحكم الذي يتدرج أعضاؤه على حسب قدراتهم الذهنية الخاصة والفريدة، لقد كان داي صديقي أيضًا وأعرف عنه الطموح والطمع وحب السلطة، إنه من صفوة المجلس الآن !

-بعد إبعادك، توصلت إلى مكانك الجديد وعرفت أنك فقدتِ كل ما يربطك بنا وتم محو ذاكرتك تمامًا، عودتك باتت مستحيلة ولا دليل أملكه لأقدمه لهيئة الحكم، لأثبت تلك الجريمة، مرت السنوات، كنت أنتقل فيها بين العالمين لأتتبع حياتك في العالم الآخر، كانت أمورك تسير ظاهريًا مثل باقى البشر، لكن شعورك بالغربة والاختناق لم يفارقك أبدًا، عندما تزوجتِ وأتى آدم، تغيرت مسار الأمور تمامًا، آدم لا يمت للبشر بصلة، هو مثلك ومثلي، وعرفت حين أتى إلى هذه الدنيا أن عليَّ التدخل حتى تعودا إلينا، لقد دبرت كل شيء، موت آدم واتهامك بقتله حتى وصلتِ للنقطة المطلوبة.. الحكم بالإعدام! بعدها عدتِ مع المبعدين إلى أرضك مرة أخرى، وكنت أثق أنك ستمرين من تلك الاختبارات العقلية .

نهضت آسيا بعينين مشتعلتين لتقول بصوت هادر: "أنت دبرت موت آدم؟"!

-آدم بخير ويعيش على الجزيرة كواحد منا، اسمعيني أرجوكِ ولا تقاطعيني، آدم لن يمسه سوء، المشكلة الآن في وجودك على الجزيرة، إن وشمك خافت، وهذا يحدث عندما نمرض أو نحتضر فقط، وعند الموت ينطفئ هذا الوشم تمامًا، لكن وشمك سينطفئ قريبا آسيا، سينطفئ وأنتِ مازلتِ على قيد الحياة، عندها سيعرف الجميع أنك دخيلة وسيتم القبض عليكِ وإقصائكِ.

قالت بلهجة شبه باكية: "أريد أن أراه، أرجوك."

-كل ما أطلبه منك الصبر، لا تفسدي كل شيء الآن، لا تفكري بآدم، آدم لا خطر عليه أبدًا، كل ما يحتاجه الأمر أن تحاولي استعادة ذكرياتك القديمة، عندها ستعود بيانات عقلك إلى العقل الجمعي، ستعودين إلينا وسيتم إقصاء داي لجريمته.

- لكني لا أتذكر أي شيء!

-ستفعلينها آسيا، مثلما عبرتِ تلك الاختبارات، فقط صفي ذهنك ولا تفكري بأي شيء سوى محاولة استعادة الماضي المفقود.

-ماذا لو فشلت وانطفأ الوشم، ماذا سنفعل؟!

-أنا لا أضع هذا الاحتمال، أنا أثق أنك ستعودين إلينا.

* * *

خطى متواصلة مرة أخرى.. لكن تلك المرة دون مشاهد طبيعية عجيبة في الأرجاء، دون إرهاق بدني يجعل تلك الخطى كما حمل الأثقال، دون خوف من مسوخ أو وحوش تواصل خطاها هي الأخرى لتنالك، دون جوع، دون رفقة جمعها حظها الأسود معك، فقط المدنية تأنقت في أبهى أرديتها من حولك، شوارع منظمة، سيارات متطورة، أبراج شاهقة بواجهات زجاجية لامعة، أناس يبدون كالبشر تمامًا ولا يختلفون إلا بتلك البقعة الوهاجة على الجبهة، هكذا بدأت رحلتها لاستعادة ذلك الجزء المفقود من عقلها، هو ليس مفقودًا، كما أقنعها رامو، هو مغلق بأقفال ومتاريس، وما عليها إلا أن تجد المفاتيح، لتعود.

تمارين استرخاء بدأت في المواظبة عليها، جلسات تشبه التنويم المغناطيسي أجراها رامو عليها لتنقية ذهنها ومحاولة الوصول إلى العمق

النائم وإيقاظه، السير يوميًا في شوارع المدينة علها تجد أي منبه أو مثير يجعلها تعود، هكذا اتفق معها رامو بالالتزام بهذا الجدول لحين ظهور أي بارقة أمل في الأفق، والأهم أن عليها أن تقضى تمامًا على أي بذور للخوف والشك والظلام بداخلها حتى تتيسر مهمتها .

بأقصى طاقة متبقية لديها تحاول، صدقا هي تحاول، لكن الظلام المستعر بداخلها والذي ملأها منذ انتقلت إلى عالم البشر، مازال هناك يمارس معها وتمارس معه مشاحنات ضارية، ولم تسفر تلك الحرب عن نتيجة نهائية بعد، تحتاج إلى وهج قوى، كما ذلك المضئ على الوجوه ليقهر قوة الظلام بداخلها .

تتأمل الأرجاء من حولها بدقة، تكاد لا تغيب عنها تفصيلة صغيرة، لكن لا شيء.. كأنها في هذا المكان لأول مرة، تطرح عن خواطرها الخوف، تتابع التأمل والسير والغوص في تفاصيل هذا القوم، أنفاس عميقة وصوت رامو يساندها: "ستفعلينها.. أنا أثق بكِ"، توقفت عن السير بعد أن شعرت بالإرهاق يتسلل إلى مفاصلها، هنالك ما يشبه المقهى حيث تراصت الموائد والمقاعد في ساحته، بينما جلس البعض

منهم يرتشفون من أكواب صغيرة بيضاء، اتجهت ناحيته واتخذت لها مقعدًا، ثم ثوان وأتى إليها الروبوت حاملًا كوبًا دون حتى أن تطلب، يبدو أن كل العمالة هنا من تلك الكائنات المعدنية الآلية، قربت الكوب من شفتيها لتتذوق سائلًا ساخنًا، غريب المذاق وشهي في نفس الوقت، تتابعت الرشفات وهي تنظر لبعيد في شرود فلم تنتبه إلى ذلك الصوت المزمجر الغاضب !

تقوس ذلك الكائن الصغير الشبيه بالقوارض، بينما انتفشت شعيراته وهو يزوم مصدرًا صوت مزعج، جعل صاحبته السيدة المسنة الأنيقة تربت على رأسه ليلتزم الهدوء، بينما لاحظت أن نظراته مصوبة على تلك الشابة الجميلة التي تجلس وحيدة وشاردة، لكن الكائن الصغير لم يهدأ بل انكمش ملصقًا جسده بمقعد صاحبته، وكشر عن أنيابه لكنه أخفض من صوته المزمجر المزعج، التفتت آسيا لتجد هذا المشهد أمامها، التقت عيناها مع عيني السيدة المسنة مصحوبة بابتسامة خافتة، لكنها توترت من مرأى الكائن الصغير، فأشاحت بعينيها بعيدًا، نهضت السيدة

لتقترب من آسيا ووضعت يدها على كتفها برفق وهي تقول: "هو لا يحب الخروج من المنزل."

التفتت آسيا لتدرك أنها تتحدث عن حيوانها الأليف، ثم قالت بابتسامة خافتة وهي تتأمله، بينما هو مازال على وضعه المنكمش: "ومن يحب مغادرة وطنه الصغير الخاص؟."

قالت السيدة وهي تتأمل وميضها الخافت: "عليكِ البقاء بوحدات الرعاية، تبدين مريضة عزيزتي."

أومأت آسيا برأسها إيماءة موافقة وخافتة، ثم تابعت بعينيها السيدة وهي تغادر المكان مع الكائن الممتعض الذي كشر عن أنيابه، تذكرت آسيا أنها رأت ذلك الصغير من قبل، لقد كان ملتصقًا بجسد الشجرة المفترسة في أرض المبعدين، مازالت لا تصدق أن كل ما رأوه هناك هي أوهام، لم تلبث كثيرًا في المقهى، فقد بدأ الإحباط يتسلل إليها لانتهاء اليوم دون تذكرها لأي شيء، لذلك اتخذت طريق العودة بقدمين متخاذلتين إلى الفندق.

خرجت من المصعد واتجهت ناحية غرفتها بخطوات يائسة، ثم توقفت فجأة متلمسة أسفل عنقها بيدها، بينما ارتجف جسدها مع شهقة مكتومة ولمعت عيناها بدمعة متحجرة، ثم نطق لسانها باسمه.. "آدم"، وفي اللحظة التالية كان الصغير بين ذراعيها!

* * *

مر يومان بعد لقاء آدم لم يحدث فيهما أي جديد، محاولات مضنية منها لكن الأمر بدا كأنها تعتصر كيسًا فارغًا، المدينة بكل ما فيها لم تطرق أي باب ولم تفتح أي نافذة على الماضي الذي ذهب أدراج الرياح، رامو يحاول تهدئتها لكن القلق يطل من عينيه رغما عنه، رؤية آدم لم يحسن الأمور بالنسبة إليها، لأنه ضاغف المخاوف بداخلها، ما مصيره لو لم تنجح؟ !

عندما تركت غرفتها ذلك اليوم، ساقتها قدماها دون أن تدري لأطراف المدينة.. إلى الشاطئ! خلعت حذاءها الخفيف وتقدمت إلى الداخل، لتغوص قدماها في الرمال الزرقاء وهي تقترب من الأزرق

المالح الهائج أمامها، المشهد لا يختلف كثيرًا عن بحر الإسكندرية، لكنها وجدت نفسها -ولأول مرة- تشعر بالحنين إلى هناك.. إلى عالم البشر!

كان الشاطئ خاليًا فلا يوجد سواها والأمواج، التفتت إلى يسارها لتجد غابة خضراء ممتدة إلى الداخل بموازاة البحر، عندها تركت الرمال وتحركت لتدخل في النطاق الأخضر، على غير المتوقع لم تجد أشجارًا كثيرة بالداخل، لكنها وجدت مساحات شاسعة من الزنابق البيضاء، ذكرها المشهد بأرض الزهور البيضاء التي ابتلعت أونغ صبيحة ذلك اليوم بأرض المبعدين، لكن أحجام تلك الزنابق كانت أكبر، مع كل هذا الجمال الخلاب لم تستطع أن تمنع يدها من أن تمتد لتقطف واحدة منها، من المؤسف انتهاء هذا الجمال، بعد خلعه من سيقانه التي تربطه بوطنه الأرض، ليحمله المطاف إلى أحد المزهريات الزجاجية الباردة، وحتى لو وضعت له المياه لن يعود إلى رونقه القديم أبدًا!

تأملت الأبيض الباهي المستقر على راحة يدها بشرود، تنهدت ثم التفتت حولها وهي تفكر هل تتوغل أكثر بالداخل، لكن شيئا بداخلها أخبرها أنه لا فائدة من المضي في تلك الغابة، وأن عليها العودة خاصة

بعد أن شارف الظلام على السيطرة على الأجواء، غادرت الشاطئ الرملي عبر درجات صخرية تقود إلى الأعلى، لتعود إلى قلب المدينة، كانت في مشيتها البطيئة نموذجًا مجسدًا ليأس يسير على قدمين، الجميع هنا مفعم بالحياة حرفيًا عدا هي، فحتى لو لم تنطفئ الدوائر أعلى جبهتها، سيشكون بأمرها! بينما كانت تغادر الدرجة الأخيرة لتصبح وسط المدينة تاركة الشاطئ خلفها، كان هناك شخص آخر يدخل إليه بالرغم من خلوه ومن انتشار الظلام، ولأنها تائهة في ملكوتها الخاص لم تنتبه إليه، في حين التفت هو بجسده الأسمر القوي مضيقًا عيناه وناظرًا إليها من الخلف كأنه يشتبه في شيء ما! ثم ما لبث أن واصل طريقه هبوطًا إلى الشاطئ وتلاشت هي في زحام المدينة .

عرفت أن جولتها لهذا اليوم قد انتهت كالعادة دون أي نتائج ملموسة، لذلك قررت العودة إلى المسكن، أضواء المدينة متألقة متراقصة عارمة، تجعل الشوارع والبنايات تسبح في ضوء كضوء النهار، لكنه أكثر جاذبية وسحرًا، واصلت سيرها البطئ متأملة الأجواء من حولها بينما

مازالت يدها مطبقة على الزنبقة البيضاء بقوة، ثم وجدت من يشير إليها بعينين متسعتين من الرعب!

في ثوان، سادت الفوضى المخيفة، إنهم يشيرون إليها ويركضون، والمخيف أكثر أنهم يركضون هربًا منها!

توقفت وقد تسارعت أنفاسها ودقات قلبها، التفتت ببطء متوقعة السبب، وعندما نظرت لانعكاسها على زجاج المتجر الذي تسير بجواره، لم تر سوى جسدها المظلم.. المظلم تمامًا! سمعت صوت أبواق من بعيد وعرفت أن رحلة المطاردة بدأت من تلك اللحظة، لقد انطفأت الدوائر والآن عليها أن تعاود الركض!

لم تجد ملاذًا غير الوجهة التي أتت منها، لذلك لم تتوقف لحظة واحدة حتى أصبحت أمام الأمواج السوداء التي ينعكس على صفحتها الأقمار الثلاثة، واصلت الركض حتى دخلت إلى أرض الزنابق، لتختبئ خلف بعض الشجيرات في موقع يتيح لها رؤية الشاطئ كاملًا، بصعوبة حاولت أن تضبط وتيرة أنفاسها، ليهدأ جسدها الذي استهلك كمًا مهولًا من الأدرينالين في كل تلك الرحلة، وبالرغم من أنها نجحت في

ذلك إلى حد كبير، إلا أن عقلها لم يتوقف عن التواثب والتفكير، ما هي الخطوة القادمة؟ لقد انكشف الأمر ولن يمر وقت طويل حتى يجدوها، ما الذي ستفعله؟! هل ستعود بمساعدة رامو إلى أرض البشر؟ ولو استطاعت العودة هل ستستطيع ترك آدم هنا ونسيان أمره تمامًا؟ وحتى لو فعلت ذلك وذاك هل ستعود إلى عالمها المظلم لينتهي بها الأمر إلى قتل نفسها في النهاية؟ لقد رسمت سيناريو لما يمكن أن يؤول إليه الأمر بأفضل الاحتمالات وهو النجاة من قبضة سلطات المدينة، فما بالك بالسيناريو المتوقع لما سيؤول إليه الأمر لو قبضوا عليها؟! كل الاحتمالات تؤدي إلى نفق مظلم ولا يوجد أي بارقة أمل من أي نوع .

نزعها من براثن تلك النحلة التي تجوب ردهات عقلها، صوت حفيف الأوراق الذي أعلمها أنها ليست وحيدة، انكمشت في مخبئها أكثر وهي تراقب الأجواء من موقع أكثر انخفاضًا، عندها شاهدت ذلك الشاب يغادر أرض الزنابق ببطء، وقف لدقائق متأملًا تلال الأمواج ثم غادر بعدها الشاطئ في تؤدة تحت ناظري آسيا المترقبين، ظلت منكمشة في وضعها حتى سمعت صوت خطوات غائرة في الرمال

تقترب، حتى أصبح صاحبها مرئيًا على مشارف الغابة تحت وهج الضوء الفضي، بعدها بدأت تعود ضربات قلبها إلى شيء من الانتظام، وتحركت لتغادر مخبأها مسرعة تجاهه!

* * *

لم تحمل الرياح سوى صوت هدير الأمواج العاتية، بينما تألقت الموجودات تحت الوهج الفضي مكسبًا البتلات البيضاء رونقًا خاصًا ومبهرًا للعيون، جلس الاثنان متقاربين أكثر من المعتاد، يرمقان الليل والأمواج من موقعهم داخل أرض الزنابق، وقد توقف الطرف الداعم المطمئن عن بث كلماته الواثقة الإيجابية المعتادة، بعد أن أوصلهما الحال إلى تلك النقطة التي لا مفر منها، لم يتبق الكثير وسينتهي كل شيء هذا ما قرأته في عينيه تلك المرة، لذلك قالت بنبرة مستسلمة هادئة: "رامو.. مهما آلت إليه الأمور معي، هل سيكون آدم بخير؟ هل سيعيش دون أي خطر يترصده؟."

قال متحاشيا النظر إلى عينيها: "لا يوجد ذرة خطر على آدم، إنه يواصل مسيرة حياته هناك بالأعلى كواحد منا، حتى أنه لا يحتاج إليَّ أو إلى أي شخص راشد ليوجهه."

تنهدت قائلة: "وأنا يكفيني معرفة هذا."

-أستطيع أن أُعيدك إلى عالم البشر!

-لا يا رامو، لقد فشلت في الحياة بينهم، صدقني سينتهي بي المطاف هناك إلى قتل نفسي.

-لا يوجد حل آخر بيدنا الآن.

-أنت ستواصل حياتك القديمة هنا وستهتم بآدم حتى لو كان هو لا يحتاج إليك، هكذا سأشعر يالاطمئنان والسلام أخيرًا.

-وماذا بعد؟!

أغمضت عينيها وهي تقول: "خلصني من حياتي، أريدك أنت أن تفعلها."

-أنا لن أستمع لمثل هذا الكلام، دوبا!

-تعرف بداخلك أنه لا يوجد حل آخر!

-هناك دائما حلول، حتى لو لم تدركها أعيننا في تلك اللحظات.

-كيف كانت علاقتي بك فيما مضى؟

-كنا مقربين جدًا، أفضل صديقين كما كنتِ دائمًا تقولين.

-صديقان فقط؟

-لم تنظري لي يومًا بمنظور آخر، أما أنا فلا.

-بعد كل ما فعلته من أجلي، لا أصدق أني كنت أراك صديقي فقط.

-لا.. أنتِ فقط لا تتذكرين كيف كانت مشاعرك تجاه داي، بالمناسبة هل رأيتيه؟ لقد رأيته يغادر الشاطئ منذ قليل.

-هل هو ذلك الشاب الأسمر؟

-نعم.

-كان يزور كوابيسي كثيرًا!

-دائما ما يترك أثرًا عميقًا يصعب محوه.

اكتنفهما الصمت الكئيب قليلًا ثم عاود رامو التكلم قائلًا بنبرة متشجعة: "سأحاول إخفاءك الأيام القادمة حتى تتذكرين ماضيكِ."

دنت منه أكثر مقربة وجهها من وجهه فاحتواها بذراعيه بينما أصدر جسده رعشة مكتومة، همست في أذنيه بنبرة متهدجة: "افعلها يارامو، أرجوك"، فلم تتلق منه إجابة غير اهتزازه بالبكاء واشتداد قوة ضمها أكثر حتى أصبح جسداهما ملتحمين في عناق حار.. عناق لم ينزعهما منه

إلا الضوء الساطع الذي غطى على وهج الأقمار مصحوبًا بصوت نفير حاد يصم الآذان!

* * *

على محفة معدنية منتصبة رأسيًا في وضع عمودي، وبقيود ذاتية برزت منها كالمخالب لتأخذ أماكنها حول الرقبة، الذراعين، الساقين ومنتصف الخاصرة، تم تثبيت جسدها في وضع شبه مصلوب، بينما تم توصيل أقطاب عديدة إلى الرأس ذي الملامح الدقيقة وتوهجت الدوائر الثلاثة في وميض متراقص، في تلك اللحظات، لم يكن يتحرك منها أي عضو غير حدقتيها اللتين كانتا تجوبا المحجرين بجنون يمينًا ويسارًا، حتى لسانها فقد القدرة على النطق، أي أنها كانت واعية بالكامل لكل ما يجري حولها، لكنها فقدت القدرة على الإتيان بأي رد فعل حتى لو كان مجرد كلمات تغادر شفتيها، كانت غرفة زجاجية ذات بياض ساطع عدا جدار واحد شفاف يفصلها عن الغرفة المجاورة، والذي استطاعت من خلاله رؤية رامو مثبتًا على نفس الهيئة، وإن كان مغمض العينين، ووهج دوائره ثابت كما هو دون أن يتراقص !

ما إن وقع نظرها عليه، حتى توقف سريان حدقتيها المجنون، والتمعتا بدمعة ساخنة أخذت مجراها سريعا على وجنتها، بداخلها هناك بركان ثائر لكن فوهته مسدودة تماما، عضلاتها تريد التواثب، تريد التملص من القيود، لكن أقصى شيء استطاعت فعله هو تلك الدموع، في تلك الأثناء كان هنالك ذلك الأسمر ذو الجسد القوي المشدود، يجتاز نقاط العبور الواحدة تلو الأخرى عن طريق شاشة إلكترونية، تفحص وجهه مليًا لتعطي في النهاية (تأكيد الهوية- السماح بالعبور)، حتى دلف أخيرًا إلى الغرفة البيضاء ليقف باعتداد أمام عينيها الدامعتين .

تلاقت النظرات لأول مرة منذ أمد، عندما كان يأتيها في تلك الأحلام، كان شكله دائمًا مبهمًا دون تفاصيل، فقط هيئته العامة ولونه الأسمر المميز، الآن يبدو في أبهى حالاته.. واثقًا، مسيطرًا، يملك مفاتيح كل الأمور في يده، اقترب منها ببطء لتمتد يده خلف رأسها حيث قام بالضغط على زر أحمر صغير، بالكاد مرت دقيقة، انطفأت الدوائر وأصدرت بعدها شهقة كأنها نجت للتو من الغرق، بينما استشعر جسدها أنه عاد يسيطر على الأمور، لذلك أخذت تتملص في موضعها

في محاولة فاشلة للإفلات أمام ناظري الأسمر الباردتين، تكلم بهدوء قائلًا: "لا ترهقي جسدك كثيرًا، تعرفين أنه لا فائدة من هذا المجهود."

كانت تعرف ذلك، لكنها كان رد فعل تلقائي من عضلاتها التي همدت طويلًا، لذلك أخذت نفسًا عميقًا لترخي جسدها وأغمضت عينيها متجاهلة إياها، واصل الحديث قائلًا: "مضى وقت طويل، دوبا."!

تكلمت ببطء إذ كان لسانها مازال ثقيلًا: "السؤال الوحيد الذي يطرق عقلي الآن.. هو كيف فضلتك على رامو؟."!

-يبدو أنكِ كنتِ تستحقين النفي إلى عالم البشر، فعقلك به نقاط ضعف بشرية على الأرجح، لذلك انتهى بكِ الحال هنا.

-ليس عقلي أيها الأحمق، بل العاطفة التي أعتقد أنك جُردت منها تمامًا.

-هل تعتقدين أنك في موقع يسمح بالجدال؟

-تذكر أنك من أتيت لتجادلني أيها الغبي.

-أووه.. دوبا صارت عدوانية جدًا!

-ماذا تريد مني الآن، داي؟

-الحقيقة كان لدي فضول شديد لرؤيتك بعد كل تلك الأعوام.

-وهل رأيتني؟ إذن غادر لأنك لوثت الهواء بما يكفي.

-لا تريدين سؤالي عن أي شيء حقًا؟!

-وهل ستُحدث معرفتي فرقًا؟

-يبدو أنك فشلتِ تمامًا في استعادة ذكرياتك القديمة.

-تعرف أنا مسرورة حقًا لأني لم أستعد ماضيًا كنت أنت فيه، في عالم البشر كان الموت هو أمنية بعيدة لم أستطع أن أنالها، أما الآن فهي على وشك أن تتحقق، فقط ما يحزنني أنني سببت كل هذا لرامو!

-الموت ترف لن تنالاه، فسيتم نفيكما قريبًا إلى أرض المبعدين، كل ما رأيتيه هناك فيما سبق سيكون كلعبة من ألعاب الأطفال، عندما ستدخلان وتريان المستويات العليا في تلك الاختبارات، ستجدان الهول الحقيقى هناك، لقد تم إثبات جرمكما، فمنذ أن تم القبض عليكما وعقليكما متصل تمامًا بنظام عقلنا الجمعي، حيث يتم تحليل كل البيانات والذكريات بدقة بواسطة هيئة عليا مخصصة لذلك، هل تعرفين ماذا

كانت نتيجة التحليل؟ هل تعرفين ما الذي حواه عقلاكما؟ بالنسبة إليكِ، لم يجدوا غير ذكرياتك في عالم البشر، لا شيء من قريب أو بعيد ينم عن أنك كنتِ تنتمين إلينا، أما عن رامو، فلم يجدوا غير أدلة كافية على جريمته.. الانتقال بين العالمين، وإدخال بشرية إلى الجزيرة، تلك خيانة عظمى لجنسنا، إنه أول مجرم في تاريخنا.

-أنت تعرف الحقيقة كاملة، كيف لا تظهر تلك البيانات والذكريات في العقل الجمعي؟

-حسنا، تستطيعي أن تقولي أن ذلك من ضمن مواهبي الفريدة!

-لم فعلت كل ذلك، داي؟

-لأجعل الأمر مختصرًا.. لقد اخترت التقدم للأمام وإزاحة أي عقبة في طريق صعودي.. حتى لو كانت تلك العقبة الفتاة التي....

لجم الصمت لسانه عن مواصلة الحديث عندما شعر أنه بدأ يهتز لرؤياها، اقترب منها ليتأمل وجهها وقال بخفوت: "لم تتغيري أبدًا، دوبا"، ثم اقترب أكثر ليهمس في أذنها: "آسف، انتهى كل شيء!"،

بعدها امتد إصبعه ليضغط على الزر الأحمر، لتمر دقيقة ولتعود بعدها دوبا إلى هيئتها العاجزة الأولى!

* * *

لم يتغير المحيط الضيق ذو الجدران البيضاء الزجاجية، حتى وإن كانت غير متأكدة هل تم نقلهما أم لا، لأنها استفاقت في ذلك اليوم لتجد جسدها حرًا من القيود وعقلها واعيًا تمامًا لكل ما يجري، كان أول شيء فعلته عندما عادت لها حريتها الجزئية المؤقتة هو النهوض لرؤية رامو. كان هو هناك بالغرفة المجاورة جالسًا ومسندًا ظهره على الفاصل الزجاجي الشفاف بينهما، بينما أرجع رأسه للخلف لتتعلق عيناه بالسقف في جلسة يائسة واضحة، اقتربت من الزجاج وطرقت عليه بقوة، لكنه لم يغير من جلسته فعرفت أن الجدران عازلة للصوت، لذلك جلست هي الأخرى مستندة على الجدار في مواجهته، مرت دقيقة بعدها اعتدل هو في جلسته ليفاجأ بها منكمشة وراء الزجاج، بالرغم من أن الزجاج حاجز قوي للصوت، إلا أن النظرات كانت كفيلة بكل شيء، تلاصق الكفان عبر المادة المصقولة، بينما قالت هي موضحة الكلمة بقدر

استطاعتها: "أنا آسفة"، هز رأسه بقوة علامة الرفض، ثم أخذ يؤتي بإشارات ليُفهمها ما يريد قوله، لتخرج العبارة التالية: "فكري، اهدأي، ستستعيدينه صدقيني"، دمعت عيناها، حتى في أحلك الظروف لم يتخل لحظة عن قوته المتفائلة الغامرة، كيف لم تقع بحبه يوما؟! كان كل شيء سيتغير!

انتبهت على صوت إلكتروني قادم من علية أحد الجدران، فالتفتت لتجد شاشة رقمية كتبت عليها عبارات متتالية ومتزامنة مع الصوت:

(الانتهاء من المسح الشامل للبيانات العقلية)

(النتيجة.. تأكيد التهمة.. مذنب)

(العقوبة.. النفي لأرض الاختبارات)

(التنفيذ.. ساعتان وسيفتح الباب على المنفى)

(بدأ العد التنازلي)

(40..59..1)

إلى تلك النقطة، فقدت آسيا تماسك أعصابها، ظلت تدور وتدور في محبسها وهي تعتصر مخها، (يجب أن أتذكر.. يجب أن اتذكر!)، وقف

رامو يرمقها بحزن واستسلام بعد أن ظهر التنبيه الإلكتروني في غرفته أيضًا، لكنها لم تنتبه ولم تنظر إليه، فقط لم تتوقف عن الدوران.

(00..30..00)

(00..15..00 )

انتهى بها المطاف إلى الرقاد على الأرض والانخراط في بكاء حاد صارخ، بينما ولت ظهرها لرامو الذي توالت دقاته المتلهفة على الزجاج، كان ذلك عندما شعرت بذلك الشيء بين طيات ثيابها، امتدت يدها تتحسس هذا الملمس الناعم المختبئ خلف الثياب، ثم أخرجته لتجد أنها الزنبقة البيضاء التي قطفتها من الشاطئ! قربتها من وجهها وزاد نحيبها أكثر، عندما لمع أمام عينيها فجأة هذا الوميض.. وميض نتج عن تلامس البتلة البيضاء الذابلة لماء عينيها المالح !

مرت دقائق معدودة، انطلق صوت إنذار قوي في الغرفتين، ثم انفتح البابان فجأة، لكن ليس على أرض المبعدين!

نهضت آسيا لتواجه رامو الذي كان ينظر لها بعينين مذهولتين، ثم هتفت وسط دموعها: "لقد تذكرت كل شيء."!!

* * *

بكفين متشابكين وبخطوات متواثبة تملؤها الحماسة والفرحة، غادرا مقر الأقمار الثلاثة حيث العقل الجمعي، حيث السلطة العليا، وحيث تدار جميع الأمور في الجزيرة، غادرا بعد أن تم إعلانهما زوجين رسميًا! هنا نراها.. دوبا تلك المرة وليست آسيا، الملامح لم تتغير لكنها تختلف كثيرًا عن آسيا البشرية! لم تكن الدوائر الثلاثة متوهجة فقط من الخارج، بل كان هذا الوهج ينبع من الداخل ليتألق على وجهها الباسم.. كانت تنبض بالحياة حرفيا، هنا نراه أيضًا.. داي بهيئته المميزة، لكنه تلك المرة كان منطفئًا عنها، فعقله لم يتوقف لحظة عن التفكير فيما نوى فعله وبت الجدال فيه، تكلمت بلهجة مرحة منتزعة إياه من شروده: "لا أصدق أننا فعلناها."!

قال بلهجة تمثيلية: "بعد تردد طويل من السيدة دوبا، قررت أن تتنازل أخيرًا لتتزوج بالمسكين داي."!

أصدرت ضحكة خافتة في حين أحاط ظهرها بذراعيه ليقربها منه أكثر، عاودت الحديث قائلة: "أين سنذهب الآن؟."!

-أعددت لك مفاجأة صغيرة في أول ليلة لنا!

لم ترد عليه تلك المرة، بل انفلتت فجأة من ذراعه مسرعة تجاه القادم بضحكة وهي تنادى اسمه: "رامو."!

موجة من الامتعاض سرت بداخله وهو يشاهدها تصافح رامو بلهفة، لكنه أخفاها تحت قناعه الرصين ثم اقترب أكثر ليصافحه أيضًا، بعدها تكلم رامو بلهجة نجحت في إخفاء مشاعره الدفينة: "مبارك.. لقد فعلتماها أخيرًا."!

قالت دوبا بمرح: "سيأتي دورك قريبًا، لا تبتهج هكذا."!

-بالتأكيد، هذا سري الخاص!

قالت بلهجة متفاجئة: "أيها الخبيث، أخفيت هذا الأمر عنا!، انظر إليه يا داي، نُعلمه بكل خطوة نخطوها بينما هو لا يكشف أوراقه لنا أبدًا ."

قال داي بابتسامة: "لطالما كان أكثرنا تعقلًا وهدوءًا."

قال رامو: "حسنا.. ارحلا بعيدًا الآن يا طائري الحب ولا تلقوا بالًا لي، أتمنى لكما السعادة."

لكزته دوبا على كتفه ثم قالت وهي تغادر: "لن أهدأ حتى أعرف كل التفاصيل، سينكشف سرك قريبًا، رامو."

ودعهما بإشارة من يده، بينما عاد ذراع داي يحتوي دوبا ليُكملا سيرهما إلى الوجهة المنشودة.. إلى الشاطئ!

في أرض الزنابق التي كانت تتألق تحت الوهج الفضي، رقد الاثنان في أول ليلة حب جمعتهما على مرأى من الشواهد الطبيعية الخلابة التي احتوت جسديهما بصمت، بينما ازداد توهج دوائرهما حتى كاد يغطي على وهج الأقمار، بعد لقاء عاصف انتظراه بشوق منذ أن ارتبط قلباهما بحبل حسبت دوبا أنه لن ينقطع إلى الأبد، استكانت على ذراعه لتأخذهما فترة صمت وهما يتأملان السماء، بعدها أدارت وجهها لتتأمل وجهه، ثم اقتربت لتطبع لثمة على خده وقالت: "إنه أروع من الحلم."!

أدار وجهه ليطبع قبلة على شفتيها، في حين انكمشت هي أكثر بين ذراعيه، ثم قال: "أعرف أنك تحبين الشاطئ، لا أحد هنا في الجزيرة يُلق بالًا للطبيعة الخلابة التي ننعم بها."

ضحكت وهي تقول: "أصبحنا نعيش كالروبوتات التي صنعناها، دون روح."

-أنتِ تختلفين!

-أنا محظوظة بك!

اعتدل ليتخذ وضع الجلوس ثم قال وهو ينظر إليها: "حسنا.. إلام وصلتِ في موهبتك الجديدة؟"!

-لا آخذها على محمل الجد، لماذا تذكرني بها كثيرًا؟!

-لا تعرفين قدر نفسك! ربما توصلك هذه الموهبة لرأس مجلس الجزيرة!

ضحكت دون اكتراث وهي تقول: "ألهذه الدرجة؟"!

-لم أقابل أحدًا يصنع حدثًا مستقبليًا من قبل!

-لم أقابل أحدًا قادرًا على التنبؤ بالمستقبل بدقتك أنت!

-موهبتي تختلف، فأنا لا أرى المستقبل، لكن أستطيع رسم تسلسل للأحداث ووضع الاحتمالات وبمعادلات معينة، أستطيع ترجيح كفة واحدة منها، أي أنه مجهود لا يُستهان به، أما عنك فتستطيعين فعلها وأنتِ نائمة هكذا!

قالت بخبث: "حقا؟"!

في اللحظة التالية، اشتدت الرياح وعلت الأمواج لتُغرقهما بالمياه ثم هدأت فجأة كأن شيئًا لم يكن!

قال وهو يهجم عليها بعد أن ابتل بالكامل: "هل ستمارسين ألاعيبك معي؟"!

لم تستطع أن تتوقف عن الضحك بعد أن أبرحها عضًا وضربًا، فاحتضنته مقبلة إياه لتجبره على التوقف، ثم قالت بعد أن التقطت أنفاسها: "إنها مجرد ألاعيب داي، لا أنظر إليها على أنها أكثر من ذلك حقًا، ثم أنا لا أريد أن أكون في مركز سلطة."

-يا للتواضع !

-نظرتي للأمور تختلف عنك، فأنا أفضِّل أن أستمتع بحياتي دون قيود، أما عنك فأنت تحب المواقع التي تتيح لك إصدار القرارات والأمر والنهي! تعرف.. أحيانًا تخيفني!

صمتت فجأة وأحاطت رأسه بذراعيها، ثم أكملت بنبرة جادة وشاردة قليلًا: "لكني أحبك، أحبك جدًا."!

استيقظت على وهج أشعة الشمس صبيحة اليوم التالي، فتثاءبت وتمددت ونظرت حولها لتتذكر أين هي، ثم ابتسمت بعدما لاحت لها لقطات من الليلة الساحرة الماضية، لكنها لم تجد زوجها الحبيب بجانبها، نهضت بردائها الخفيف لتبحث عنه، لتخرج من نطاق أرض الزنابق والأشجار إلى الشاطئ الفسيح أمامها، فوجدته جالسًا على الرمال الزرقاء يطالع الأمواج بشرود، اقتربت منه ببطء ثم احتضنته من ظهره فأجفل من المفاجأة، فقالت بدلال: "استيقظت باكرًا."!

قال بهدوء مريب: "نعم."!

جلست بجواره ونظرت إليه بتمعن فوجدته متجهمًا قليلًا، تكلمت وقد بدأ يساورها القلق: "ما بك، داي؟".

ابتسم على قدر استطاعته، ثم قال: "لا شيء، فقط شعرت بالسأم لأني وحيد ولم أشأ أن أُقلق منامك."

-ألم تنم جيدًا؟

-فقط ساعات قليلة لكن لا بأس، المهم أنكِ معي الآن، هناك مفاجأة صغيرة أخرى من أجل عيون دوبا!

احتضنته وهي تقول بفرح: "كم أنت لطيف داي."!

قال وهو يشير إلى القارب الأبيض الصغير الذي رسا قريبًا من الشاطئ: "هل ترين هذا القارب؟ سآخذك في رحلة بحرية."

قالت بنبرة متفاجئة: "ماذا؟"!

-خائفة؟!

-لا أدري، ولكن لم يتوغل أحد من الجزيرة في المياه من قبل! ظننت أن ذلك الأمر ممنوع!

-الآن تعرفين قيمة التواجد في السلطة! هذا مسموح لي فقط!

-لا أعرف داي، أحب المياه حقًا لكني لا أتخيل أن أكون بداخلها!

-تجربة جديدة وعظيمة، ستشكريني عليها!

قالت بتردد قليلًا: "حسنا."

-ما بكِ؟ ألا تثقين بزوجك؟

-بالطبع أثق بك، فقط خائفة قليلًا!

نهض ومد يده إليها لتنهض هي الأخرى، ثم قال: "ستكون أعظم تجربة مررتِ بها على الإطلاق."

لم يمر الكثير حتى أصبحا على متن القارب، وحتى أصبح الشاطئ بعيدًا عن ناظريها، قالت وهي ترمق الأفق الزرقاء: "ألم نبتعد جدًا، داي؟."

-لا تخافي دوبا، استمتعي باللحظة ودعي الخوف، انظري إلى كل هذا الجمال من حولك!

قالت وهي توليه ظهرها: "نعم.. المياه خلابة ومخيفة في نفس الوقت."!

شعرت بملمس رقيق على وجنتها، فالتفتت لتجدها زنبقة بيضاء قطفها لها داي، فمدت يدها بابتسامة لتأخذها وقالت بامتنان: "لم تنس أي تفصيلة داي."!

أخذ بيدها ليقفا على طرف القارب، ثم أخذ منها الزهرة وانحنى ليغطيها بالمياه المالحة وقال: "انظري إليها."!

في لحظة تراها بلا حياة، ذابلة، مجعدة، بهت نورها الأبيض القديم، انطفأت كأي كائن حي يحتضر ليغادره الوهج السحري الذي يجعله يعيش، يأكل، يشرب، يتكاثر.

وفي اللحظة التالية، وبمجرد تلامس البتلات للمالح، تستطيع أن تراه.. هذا الوهج الذي يتسلل من الساق المقطوعة إلى الكأس التي تحمل البتلات ثم ينتشر ببطء إلى الأعلى كالثعبان ليطوق المبسم والأسدية والبتلات، لتنتصب الزهرة كعروس خلابة الحسن أسفل المياه، إنها حياة بعد موت، توهج بعد انطفاء، فجر بعد ظلمة طويلة!

لمست دوبا أعلى جبهتها حيث الدوائر المضيئة لتقول بافتتان: "أشعر كأني متصلة بها داي."!

-أنتِ متصلة بها بالفعل دوبا!

❁ ❁ ❁

تهادى القارب الأبيض بحوافه الزجاجية المنمقة على صفحة المياه، بيد أنه من غير العدل أن نطلق عليه قاربًا فهو أقرب ليخت صغير الحجم.

أمواج صغيرة هادئة تمر من أسفله لتُكسبه حركة موضعية في مكانه كمهد رضيع تهدهده أمه، في حين استلقت تلك الفتاة على بطنها مسندة صدرها على طرف القارب ومُلقية بنظرها على تلك الزنبقة البيضاء التي تطبق يدها عليها وتنبض بوميض مبهر أسفل المياه، هكذا هي تذكارات الحب بين العشاق.. ورقة خطاب أو زهرة تستحيل إلى جواهر غالية الثمن في قلوب المحبين، وهذه الزهرة البيضاء كانت واحدة من تلك التذكارات.

من خلفها يقف شاب أسمر قوي البنية يتأملها والعاطفة التي يخالطها التردد تعصر قلبه عصرًا.. "يجب أن أفعلها الآن"، هكذا دوى الصراخ في عقله، اقترب منها ببطء بينما كانت هي في عوالم أخرى مع الزهرة أسفل المياه، نفس عميق ثم ركع ليلمس قدمها البيضاء العارية فتنبهت ونظرت له بابتسامة يملؤها الوله، أراد أن يبتسم لكن شفتيه

صدرا منهما تعبير غريب بين ابتسامة وصراخ ضمير على وشك الموت، لكنه لم يفكر كثيرًا.. أغمض عينيه.. رفع قدميها عاليا، لتند عنها صرخة ممزوجة بضحكة من يحسب هذا مزاحًا، والتي اختفت سريعًا ما إن رأت ملامح وجهه الجامدة، ليحل محلها الرعب وعدم التصديق!

أصدرت المياه صوتها المألوف عندما تبتلع شيئًا، ازداد توهج الدائرة في جبهة القاتل بينما علا وميض مثيلتها في جبهة حبيبته والزنبقة البيضاء في يدها.. أسفل المياه !!

المدينة ليلًا، ومن جديد، ترتدي حلتها الضوئية الباهية كما الدوائر المتوهجة على جباه مواطنيها، ازداد ضجيج الحياة فيها تلك الليلة بالذات، والتمعت كل الواجهات الزجاجية للمباني الشاهقة، لتنقل لهم تفاصيل ذلك الحدث الخاص لحظة بلحظة، بخطوات متمهلة كان يسير متأملًا الشوارع والوجوه، إنه أيضا ينبض بالحياة تلك الليلة، أخيرًا وجدت الطمأنينة والراحة طريقهما إلى قلبه بعد فراق طويل، ومنذ أن فقدها!

توقف على مشارف الساحة التي تحوى مبنى الأقمار الثلاثة حيث تحول بالكامل إلى شاشة عرض، انتبه رامو والجميع وتعلقت أعينهم على الزجاج، وبدا أن الزمن قد توقف، فبعد ثوانٍ سيشهدون مراسم عودة أول منفية إلى وطنهم مرة أخرى، بعد أول جريمة ارتكبت في تاريخهم!

عندما رسم داي الاحتمالات المستقبلية ليطمئن على موضعه في السلطة، وجد أن دوبا كانت عائقًا في تسعين بالمئة منها، بمواهبها وقدراتها الجديدة، ستتخطاه وستحصل على الموقع الذي لطالما حلم به،

رأس مجلس الأقمار الثلاثة، وبعد أن ارتكب جريمته ونفاها إلى أرض البشر، لم يكن يعرف أن هذا الحدث، سيؤدي تاليًا -حتى وإن طال الوقت- إلى إقصائه من الجزيرة كلها وليس من المجلس فقط، أي أنه بيده رسم مستقبلًا أسوأ، والآن بعد أن عادت بيانات دوبا العقلية إلى العقل الجمعي لتصبح جريمته واضحة بكل التفاصيل والنوايا، تم الحكم عليه بالنفي إلى أرض الاختبارات.. حيث الهول الحقيقي كما قال لدوبا يومًا، وحيث سيتم استنزافه عقليًا وجسديًا لآخر قطرة، ليستفيد العقل الجمعي للمدينة.

أما عن دوبا، فبالرغم من بشاعة ما تعرضت له، إلا أن هذا الظرف أكسبها نقاط قوة أخرى! فبعد ميلاد آدم والذي بطبيعة تكوينهم سيمتلك قدرات أعلى منها، وبعد فحص بياناته العقلية فحصًا دقيقًا، بات واضحًا للجميع أن هذا هو الطفل المعجزة بالنسبة لجنسهم وأنه عاجلًا أم آجلًا سيترأس المجلس، خاصة أن القدرات الذهنية تزداد قوة بعد البلوغ!

بالنسبة إليها، ظلت دوائرها منطفئة حتى بعد عودة الذاكرة وللأسف ربما لن تعود إليها قدراتها القديمة، لذلك تم عمل هذا الحفل التكريمي لها، حيث سيتم ربط عقلها بالعقل الجمعي في حدث ستشهده المدينة بأسرها، لتعود واحدة منهم!

الآن تظهر دوبا برداء رقيق جعلها كالملكة، تسير بخطوات وئيدة في ممر طويل حتى وصلت إلى تلك المنصة التي وقف عليها كبار المجلس، ببطء تستدير لتواجه الكاميرات والجموع، ثم يتقدم رئيس المجلس ليضع سوارًا معدنيًا حول جبهتها المنطفأة، تمر الثواني، تشق بسمة مطمئنة إلى ثغرها ليبادلها رامو نفس الابتسامة وهو يرمق الشاشات، الآن ستتوهج كما توهجت تلك الزنبقة البيضاء بعد أن لامست المالح، الآن سينكسر الظلام بداخلها ليحل محله الضوء، الآن تتوهج الدوائر لتعود لسابق عهدها القديم. الآن تعود رسميًا واحدة منهم، وكل هذا بفضل الوميض.. وميض الزنابق!

* * *

تقوس على نفسه في وضع جنيني عاجز ومرتعش من الخوف، بينما تعلقت عيناه بالمؤقت أعلى الجدار الذي كان على وشك أن يصل للنهاية، مسام جلده الأسمر تنز قطرات العرق باستفاضة، ودموعه تسيل رغمًا عنه لتسقط على الأرض، إنه يفقد سوائل جسده منذ أن أصبح هنا.

فجأة.. انطلق الصفير وانفتح الباب على مصراعيه على أرض دخانية كأنها في سفح جبل بركاني ما!

تراجع والتصق أكثر بالحائط، لن أخرج، لكن هيهات فقد امتدت تلك اليد الأخطبوطية داخل الغرفة لتجبره على أن يقفز خارجًا، ليصبح رسميًا داخل أرض المبعدين !

تمت